العازفة

عشر مسرحيات «مونودراما» عربية

❖ العازفة : عشر مسرحيات «مونودراما» عربية
❖ د . ملحة عبد الله وآخرون
❖ الطبعة الأولى 2012
❖ حقوق النشر والتوزيع محفوظة:

هيئة الفجيرة للثقافة و الإعلام
Fujairah Culture & Media Authority

الفجيرة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
ص . ب : 7444 ـ الفجيرة
هاتف : 2222678 9 971 00
فاكس: 2222959 9 971 00
الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف :

العازفـة

عشر مسرحيات «مونودراما» عربية

د. ملحة عبد اللّه وآخرون

(المسرحيات الفائزة بالمسابقة الدولية لنصوص «المونودراما»)

المحتويات

المقدمة

عبد العزيز السريّع *

عندما بدأت فكرة مسابقة كتابة النص المونودرامي، وطرحت من قبل الإخوة في هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام، تابعناها باحترام، وبذلنا ما في وسعنا من الجهد لتنفيذها، ولكننا أخفينا قلقنا الذي يعود لعدم ثقتنا بنجاح الفكرة لأنّ المونودراما فن صعب..، وقد كان الإعلان حينها على نطاق ضيق، فتقدم عدد محدود جداً للمسابقة وهذا ما أكد القلق، ونصحنا حينها الإخوان في الهيئة بتمديد الوقت والمهلة لعدة أشهر مع تكثيف الإعلان فوافقوا بأريحية وعن قناعة، فكان من نتيجة ذلك أن ارتفع العدد إلى أكثر من خمسين مشاركاً، حينها تبين لنا بأنّ الهيئة والقائمين عليها مدركون لما يفعلون، وأنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح.

نجحت الفكرة في دورتها الأولى.. وجاءت الدورة الثانية، فإذا بالعدد يقفز إلى أكثر من ثمانين نصاً، وقلنا بأنّ العبرة ليست بالعدد، ولكننا سعدنا كثيراً بعد الاطلاع على النصوص ودهشنا لمستواها المتقدم، خاصة وأنني وزملائي في لجنة التحكيم لم نكن قد اطلعنا على أسماء أصحابها، وتلك سنّة حميدة تتبعها الهيئة ولجنة التحكيم معاً لكي لا يكون للمعرفة بالأشخاص أي تأثير على قرارات التحكيم..

* مسرحي كويتي وأكاديمي معروف، ورئيس لجنة التحكيم لمسابقة النصوص العربية في المونودراما.

قمت وزملائي بقراءة الأعمال كلها، ووضع كل منّا تقريره الخاص، والتقينا في اجتماع أول في الفجيرة ثم التقينا في القاهرة وانتهينا إلى اختيار الفائزين ولم يحدث أن لجأنا للتصويت، فقد كنت وزملائي أعضاء لجنة التحكيم الأساتذة أسعد فضة، ويسري الجندي، وعبدالكريم برشيد، وعبدالله راشد، قد أجمعنا على اختيار النص الفائز بالمركز الأول.. ومن الطريف أن نعرف بأن كاتبة النص هي الكاتبة المسرحية السعودية المتمكنة الدكتورة ملحة عبدالله.. وجاء اختيار النص الثاني وكذلك الثالث بالإجماع ثم بقية النصوص العشرة.. وهكذا نجحنا مجتمعين، هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام برئيسها سمو الشيخ راشد بن حمد بن محمد الشرقي، ونائبه الكاتب المسرحي الأستاذ محمد سعيد الضنحاني، والمشرف على المسابقة المهندس محمد سيف الأفخم، الذي أشهد له بالكفاءة وحسن التعامل، حيث حرص بمثالية مدهشة على عدم التدخل في عمل لجنة التحكيم على الإطلاق.. كان يجيب على أسئلتنا ولا يتدخل في الحوار، وكانت ابتسامته، وخلقه الرفيع وراء نجاحنا في أداء عملنا على أكمل وجه..

أهنئ الفائزين كما أهنئ الهيئة وأسجل امتناني لزملائي أعضاء اللجنة وللأخ العزيز النشط إبراهيم علان المدير التنفيذي للهيئة، ولا أنسى جهد الأستاذ حسام عبدالهادي الذي حضر اجتماعات الهيئة ودوّن نتائج التحكيم.

عزيزي القارئ

أضع بين يديك هذه النصوص العشرة المختارة، ولك أن تمارس دورك في التفضيل والتقديم والتأخير، فقد ترى تقديم نص على آخر.. وقد تستغرب اختيارنا لأحد النصوص، وقد تكتشف أشياء لا نعرفها حول أي نصّ من النصوص.

لك نهدي هذه النصوص وللإخوة المسرحيين العرب في مختلف أقطارهم علّهم يجدون بينها ما يحرك الرغبة لديهم في إنتاج وتقديم بعضها .. وما عليهم إلا الاتصال بالهيئة وسيجدون كل تعاون.. إن شاء اللّه. والحمد للّه دومًا.

العازفة

د. ملحة عبد الله ـ السعودية

المنظر:

غرفة ذات أثاث حديث أبيض، الأرائك في المكان، والسجاد على الأرض، وعلى الحوائط لوحات فنية تدل على ذوق راقٍ، النوافذ مغلقة ومغطاة بستائر شفافة ذات لون أبيض على هيئة حدوة حصان، يتوسط المكان بيانو تعزف عليه العازفة في الثلاثينات من عمرها ترتدي فستاناً أبيض شفافاً.

(يتوقف البيانو فجأة)

العازفة : أوف. كلما تتسق النغمات تتبعثر من جديد، ليتني أعرف السبب، تماماً كما هي الحياة، لا تلبث أن تتسق حتى تعطي نغمة نشاز.

(تحاول العزف إلا أن البيانو يعطي نغمة نشازاً)

: لماذا تعاندني هذه الآلة القذرة ، لقد أنهكت أعصابي، فحين ينبتر الإيقاع تتوتر أعصابي، ياله من شقاء. إنه من يؤنس وحدتي ، حين تسكن نشوتي بين أوتاره أشعر باللذة، لكنه عنيد جدا.. يتوقف فجأة ثم يعود من تلقاء

نفسه ، قيل لي لابد أن أفتحه، وكلما حاولت فتحه يحدث شيء غريب.

(تجلس على مقعد البيانو وتلتفت للمكان من حولها)

هنا سجائره في الركن مهملة، هنا كتاب كنا قرأناه.

(تعزف على البيانو وتغني. يتوقف البيانـــو)

: أف... إنها لحظات ويعود ليصلح ذاته، لكن لابد أن أفتحه.

(تحاول أن تفتحه لكنها تخاف) لا لن أستطيع **(تبكي)** أحبه لن أستغني عنه أبداً .. يالها من لحظات تتداعى فيها كل الأشياء، إن العالم يحضر بين يدي في لحظة واحدة بعدما اعتزلته وقررت العيش بمفردي دون إراقة أفكار متناثرة، فقط حين يتوقف العزف، تتجمع الأفكار وكأنها قوانين العالم الجديد وفجأة تهب الرياح فتتناثر وتتساقط الأحلام كأوراق الخريف، ويتعرى كل شيء بعدما يغيب. نعم غاب عن الوجود ذلك الزوج الحنون. حنون؟ لا بل غبي ومتعالي، **(متداركة)** لكنه مسكين ، مستكين الآن في غفوته، ربما! يستنشق عبيري الأخاذ بين ردهات هذا البيت، كان يقول لي : لك رائحة أخاذة تشعرني بالنشوة، تأخذني، تطوف بي بين

السحاب ثم تعيدني إلى الأرض في سكرة مجيدة تجعلني أسبح في ومضة من الوجد الصوفي الممتع ، إنه معي الآن وإلى الأبد يداعب خصلات شعري المنساب بين أنامله فتعزف حينها أطياف الموسيقى الكونية، وماذا؟ لو فتحت هذا البيانو العقيم الذي يبتر الإيقاع كل حين وحين ، حينها سيستقيم اللحن ويستمر، (**بفزع**) لا. لايمكن هذا ، (**بتراجع**) هل أنت ضعيفة إلى هذا الحد؟ أمي كانت تقول لي هذا .. أنت ضعيفة ، لا تقوين على اتخاذ القرار ولا تقدمين على أمر إلا بتردد يفني أعصابك. سأفتحه...

(تتقدم نحو البيانو ثم تتوقف وكأنها تجمدت ثم تذهب إلى النافذة)

هل غابت الشمس؟ إنها لاتغيب إلا لتشرق من جديد . كانوا ينادونني بحسناء الشرق لأن الشمس تشرق من بين حاجبي حين أراه، أين ذهب وأين ذهبت الشمس؟ كلمة كانت ترددها صديقتي الكاتبة، خيالها خصب . في كل نص، أين ذهبت الشمس؟ الشمس خلف النافذة .

(تتحسس جسدها) لقد بدأت تضمر محاسني وملامح جسدي، فهو من يجعل الدم يتدفق في عروقي كلما سكنت الريح.

(تقترب من البيانو وتفتحه قليلا فيسمع منه صوت رياح شديدة تفزع منها وتنزوي في أحد الأركان بخوف شديد)

ها هي رياح الشتاء تأخذ في طريقها أوراق الخريف، من الذي زرع فيَّ كل هذا الخوف؟ أمي كانت تخيفني من كل شيء، حتى الرياح . فإذا هبت العاصفة أوهمتني أن الصواعق والرعد والبرق تحرق كل شيء. من يغيثني من صوت الرعد؟ إنه يرعبني **(تتحسس ملامح وجهها)** أشعر بالبرد يكسر عظامي. أتذكر يوم زفافي وكلمات أمي .

(صوت طبول الزفة مع أهازيج الفرح ، تتناول شالاً أبيض ملقى على الأريكة، تضعه على رأسها ، تخطر في المكان على أنغام الطبول ، تقذف بالشال جانبا مع تقمصها لدور الأم)

: هو نصيبك، هو جنتك ونارك، أصغي لكلامه إذا تحدث، إذا شبت ناره فاطفئي نارك، لا تقابلين غضبه بغضب، إهتمي بغذائه فالطريق إلى قلب الرجل معدته، دعيه يتحدث كثيرا وتكلمي قليلا، فالمرأة الثرثارة آفة، فلا يسمع منك قبيحاً ولا يشم منك إلا أطيب ريح، تثني في خطوتك واهتمي بملبسك، وأجعلى حركاتك لمسا وحديثك همساً .

(تخفت الموسيقى ليعود صوت البرق والرعد)

ها أنذا قد نفذت كلماتك وسرت على الصراط المستقيم، لم أدع عطرا هنديا أو باريسيا إلا وضمخت به جسدي. لبست له كل صنوف الموضة ، عطرت شعري الهادر بعطر أنفاسه، لم أغضبه يوماً .

(تتدارك الكلام) أي نعم أنا عصبية وثرثارة وصوتي عال، لكني طيبة، لا أخفي شيئا بداخلي . آه ..الشك. هو دائي ومحاريب يقيني، يبدد أطراف أعصابي كلما سكنت، لم تكن شكوكا بل يقيناً يتحرك أمامي ، كل يوم يعود مخموراً ليهذي بأسماء حسناوات لم أسمع بهن من قبل، كل يوم حسناء جديدة، وكل يوم اسم جديد، علاقات مبتورة لا تلبث أن تهدأ حتى تذهب مع الريح لكنها تنغص عيشي وتقض مضجعي، أعرف كلما كانت هناك أنثى في طريقه، فلا يتراءى صورتي ولا يسمع كلامي ولا يشم رائحتي، أتحول حينها إلى شئ . أتحول حينها إلى كتلة متحركة بلا معنى، لا أعرف سواه لكنه يعرف سواي الكثير.

(تعزف على البيانو ، لكنه يأتي بنغمات نشاز وغير متسقة)

لابد أن أفتحه .. لكن مستحيل .. هاهو ذا يهتز وكأن به جان.. يا لخوفي منه كلما اقتربت منه يهتز وكأن به مسّاً

(تفتحه قليلا ثم تغلقه فجأة) لماذا كل هذا التردد . إذا فتحته يصير كل شئ كما يرام . لكن لا مستحيل، إنها أفكار شيطانية سأتركه يعزف قليلا ويتوقف .. لا شئ في ذلك. **(تتراجع)** لكن أعصابي تتلف من النغمات النشاز.. تبتر أحلامي ونشوتي...أوف لهذه الحالة.. سأفتحه.. ربما كان ذلك وهماً وربما كان حقيقة؟ سأجعله مكتبا لي فهذا أفضل ، بلا تلف أعصاب وصداع مستمر **(تغلقه فيتحول إلى مكتب وفوقه رصت الكتب والأوراق)** سأكمل ما تبقى من رسالة الماجستير قبل أن يعود فلو رآني أعكف عليها سيمزقها، إنه يرى في ذلك نقصاً لكبريائه المحمومة .

(تتقمص دور الزوج وتضرب بكلتا يديها على سطح المكتب)

: ألم أقل لك كفي عن هذا الهراء، كل يوم على هذا المكتب متناسية أنّكِ إمرأة. أوتحلمين أن تعتلي كرسي الوزارة، ها هي شهاداتك ملقاة على حوائط المطبخ ، لا مكان لك سواه ، أفهمتي؟

(يقذف بالكتب على الأرض ويمزق الأوراق ثم ينثرها في أرجاء المكان تعود لدور الزوجة وتلملم أوراق الرسالة وتبكي)

إنها أبحاثي التي سأنال بها درجة الماجستير قد تلفت تماما، **(تحاول تجميعها ولصقها)** كيف أعيدها لسيرتها

الأولى؟.. محال **(تبكي بشدة)** كيف أواجه المشرف عليها ؟ ماذا أقول له .. زوجي رجل عنيد وغيور قطّع أوراقي؟ سأتغلب على الأمر.

(تتناول زجاجة غراء وتقوم بلصق الأوراق الممزّقة . تعود لدور الزوج الذى يتناول كل ما هو موجود على المكتب ويفتح النافذة المغلقة يقذف بها من النافذة ثم يغلقها)

: لن أسمح لك مرة أخرى بانشغالك بهده الترهات. ألست إمرأة ؟ أجيبي أنت إمرأة أم لا؟ **(تعود لدور الزوجة)** بلى والله إمرأة كرمها الله ، وتتطلع لإنجاب البنين والبنات. آه.. تذكرت سأكتب رسالة لأمي **(تجلس على البيانو ليتحول لجهاز كمبيوتر تبدأ في كتابة رسالة لأمها)** أمي العزيزة لقد غابت الشمس .. قيل إنها لن تشرق من جديد ..أشعر بالبرد. زوجي الذي امتدحتيه وانه ليس له سواي .. لا أهل ولا جيران، هاهو اليوم يعانق الفتيات في كل حين، يعود مخموراً ويهذي بأسمائهن ، وحين أعترض يقذف بي إلى الشارع. **(يهتز الكمبيوتر ثم ينطفئ فجأة مع صوت مطر يتساقط على النوافذ.. تنزوي في أحد الأركان بخوف شديد)**.

ها هي العاصفة قد عادت من جديد إنها لم تغب حتى تعود، زمهرير البرد القارس يكسر الأشياء والثلج يغطى

كل شيء بالخارج . عاصفة الشتاء أتت مبكرة هذا العام

(يتحول الكمبيوتر لبيانو. تبدأ العزف عليه لكنه يتوقف حينا ويعزف حينا آخر).

سأفتحه هذه المرة مهما كانت النتيجة

(تحاول فتحه لكن هذه المرة لاجدوى ، تأخذ مطرقة وتدق عليه)

إنه كان ينفتح بسهولة منذ دقائق وها هو الآن يزمجر . سأحاول . **(تعيد المحاولة)** هه هه. بلا جدوى كأن متاريس العالم وضعت خلفه سأجد عوضا عنه لا محالة **(تدير جهارالكمبيوتر وتغني أغنية مليئة بالفرحة والبهجة تملأ المكان برقصة كالفراشة الملونة تخر على الأرض وتجثو على ركبتيها تجهش بالبكاء)** لقد قالت لي أمي إقذفي به إلى أقرب بائع متجول ولم افعل .. سأفعل سأقذف به لأريح أعصابي **(تقترب من البيانو ثم تجهش بالبكاء)** لا . لايمكن ذلك أبدا، إنني أحبه . أحب رائحته، أحب أنفاسه المتصاعدة من أعماق جوفه، أحب ثورته المدمرة، أعشق ذاك الغسق الثائر خلف أهدابه. قوته تشعرني بالأمان، وعنفوان سواعده تريحني من أهوال الزمان، حين تهب الرياح ويرعد الرعد وتتساقط الأمطار أنزوي كالطفلة الولهة بين حناياه فيذهب كل الخوف وأشعر بجسدي يحترق بين أضلاعه. حين

يضمني إلى خاصرته تتفتق جوانحي بين ساعديه حتى أتصبب عرقا. (**تحاول فتحه مرة أخرى فينفتح قليلاً ثم يسمع صوت عواء كلاب بالخارج يختلط بصوت الريح تغلقه**) العواصف ونباح الكلاب يجبراني على أن تظل نوافذي مغلقة كل مساء. إنه هناك يقبع بين القضبان فلا تأمن مكر النساء حين ينتزعهن الخوف من بين أحضان الأمان (**تنزوي جانباً وهي خائفة**) إنه هو ، هذه رائحته، رائحة حذائه العفن ، إنه هناك يقطن خلف العفن أو ربما أنه خلف هذه الستائر المعلقة أو تلك، أشم أنفاسه تتهدج في فتحات أنفي، إنه يلامسني. (**كأن أحدا يلاحقها**) ابتعد، لا تقترب مني فأنت تحمل في ثنايا ملابسك عطر إمرأة أخرى، هاهي خصلات شعرها على كتفيك، ليتك غسلت راحة كفيك من بقايا عرقها، من بصمات شفتيها على قميصك ، (**تستمر في الذعر**) اتركني وشأني، لن تلمس جسدي فجسدي طاهرلا تلوثه بخلايا العاهرات المبعثرة على جسدك (**تقف معتزة بنفسها**) إلى هذا الحد لا أقوى على الفعل، أمي كانت تقول لي : أنتِ حرة، جسدك حر ، والجسد الحر لا تلوثه البصمات المحمومة بعشق النساء.(**تنظر إلى البيانو**) ثم لماذا كل هذا الذعر إنه قطعة أثاث، بيانو

قطعة من الخشب! لاحول لها ولا قوة (**تتحسسه تدق عليه عدة دقات فلا يحدث أي شئ، تضحك بضحكات هستيرية**) كان لي صديقة تمتهن التأليف، تكتب كل يوم، تحلم أن يجول اسمها على صفحات الكُتَّاب والمبدعين، ولكنها كلما تكتب شيئا تضعه في خزانة موصدة بشفرة لا يقرؤها سواها (**تواصل الضحك**) كانت تكتب على الخزانة هؤلاء أبنائى. (**تضحك كثيراً**) وحين اختنق منهم واحدٌ أتت النجدة لإسعافه، لكنهم وضعوه في سلة المهملات وهي تصرخ (**تواصل الضحك**) لقد أوصت لي بهذا الميراث الضخم وحينما توفيت وفتحت الخزانة وجدتهم كلهم موتى، لكن عطراً منساباً ظل ينسل من بين جوانب الخزانة (**تنهار تبكي، تتجه إلى كومة الكتب، تتناول كتاباً، تتجول في المكان وتتحول إلى محاضرة تثبت النظارة على عينيها**) نعم لقد تناولنا في المحاضرة السابقة ما يتعلق بالتحليل النفسي ونظرية فرويد ، والآن يجب أن نتعرف على نظرية يونج أوما يسمى بالتسامي .. إن الإنسان قد فطر على الإعلاء ، أو التسامي. فالتسامي هو ما يرتفع به الإنسان فوق الظروف. والمبدع حين يبدع يقع في لحظة من «الشيزوفرينيا» بين ذاته المكبلة بالهموم وبين عالم الإبداع الحر، ومن هنا يكون التسامي

هو أحد الحوافز لحظة الإبداع (**تلقي بالكتاب جانباً وتعود لدور الزوجة**). ماذا لو كانت هذه النظرية تتخلل حياة الإنسان في يومه وليلته؟ هل تتسق الحياة (**تنظر للبيانو**) هل يعود البيانو للعزف مرة أخرى وبدون نشاز؟ وبدون أن أفتحه هذه المرة (**تعزف على البيانو، مقطوعة موسيقية كاملة وتغني بنشوة شديدة، إلا أنها تتوقف فجأة تتحسس جسدها**) حين يأتي المساء وتسدل الستائر وتطفأ الأنوار وتوقد الشموع ، تعتريني تلك الرعشة (**يتحول البيانو إلى سرير، تتمدد عليه باسترخاء**) كل هذا الهدير الجسدي يلوذ بأنامل ولهة تبعثره حيناً وتلملمه حيناً آخر. تفجر ينابيع الشهوة واللذة. آه... كلما أتحسس جسدي، أشعر برغبة محمومة في اللقاء، رغبة دافقة في التماس ، رغبة محمومة في أنفاس ساخنة يموج بها جسدي أشد من موجات هادرة تسفر عن زبد لا يلتقي بالشطآن، زبد هائم فوق أمواج هادرة. أشعر بأنفاس وكأنها آتية من فحيح أفعى رقطاء، يكاد فحيحها يلفح وجنتي الملتهبتين. أف...لهذه الحالة المدمرة، كان يتمدد بجانبي دون حراك، عله قضى ليلته مع عاهرة، أم عله يتخيل أخرى فيفتقد وجودي وأنا أتمدد إلى جواره، أم عله مأفون لا يقوى على شيء

من تلك الفحولة المنشودة **(تتقمص دور الأم وتعصب رأسها بعصابة)** :لا يضيرك ذلك في شئ يابنتي، المهم أن يكون لك زوج يملأ عليك أركان المنزل صولات وجولات، ويفتح بابك ليدخل منه ويخرج أمام العامة، أما تلك الأمور فهي أمور شكلية ليس إلا . **(تعود إلى دور الزوجة ثم تضحك حتى تملأ المكان ضحكاتها)** إنها أمور شكلية ، لمن إذا صباي، لمن إذاً هذا الشعر المنساب على كتفي كشلال هادر، من يطفئ لظى هاتين الوجنتين. تقول لي صديقتي: أحذرك من الطلاق فالمطلقات ليس لهن مكان في مجتمعاتنا العربية، **(تدور حول ذاتها وكأنها تبحث عن شيء)** ثم لماذا أتركه ؟ إنني أحبه ، أعشقه، لا يثيرني شئ في هذا الوجود سوى أنفاسه الملتهبة، لا أرى في صورته أي رجل آخر وهذه هي مشكلتي ، جسدي لن يذعن إلا لرغباته هو دون سواه . **(تبكي)** هو فقط دون غيره من كافة البشر. إنه يجبني هو الآخر ، فحين ينظر إلي أشعر أنني قد استوليت على جميع حواسه، أتسرب من بؤبؤ عينيه إلى أعماقه ، ألامس قلبه وأحشاءه، أتجول بداخله ثم أعود في لحظات. ..أوه..أشعر أنني أغتسل في حمام دافئ، ليته يعلم **(تتحسس بطنها)** أشعر بميل إلى التقيؤ **(تحاول التغلب على التقيؤ ولكن عبثاً)** إنني أشعر

بنبضات جنين حر يعربد بداخلي . إهدأ أيها الجنين، لم يحن الوقت بعد أن تحيا بداخلي . أوه.. علها نطفة طائشة جاءت في لحظات استرخاء وبدون عناء، لن أسمح لك بأن تدق جوانحي حتى آذن لك بذلك. (**تمسح بيدها على بطنها**) يالك من جرئ حين تعربد. قلت لك إهدأ. لحظة... سأغني لك أغنية تجعلك تنام .. يبدو لي إنك تحتج على أفعال أبيك. آه.. ماهذه الركلة العنيفة، ..آه فهمت إذاً، لعلكِ بنت على ما يبدو فهذه الركلات العنيفة لا تصدر إلا عن أنثى، فما هي إلا احتجاج على أفعال أبيك . قلت لك إهدئي سأغني لك أغنية لكي تنامي، سأغني لعينيك الجميلتين .. اسمعي ياصغيرتي

(تحاول العزف على البيانو ولكن بدون فائدة تغني أغنية وكأنها تهدهد طفلا على إيقاعات تدق بها على البيانو)

آه.. لعلها نامت ، إنها تعشق الغزل كعامة النساء ، حينما دغدغت مشاعرها نامت.. آه.. شبيهة أمك في كل شيء

(تضحك حتى تستلقي على ظهرها تفتح حقيبة يدها وتخرج مرآة ، تنظر فيها وتخاطب صورتها التى انعكست على الستائر المعلقة وكأنها تحاصرها)

من أنت ؟ أكاد لا أعرفك ، ..آه تذكرت ! أنت امرأة، أنت من يقض مضجعي ، ألا تهدأي وتتذكري إنك

إمرأة.؟. في مجتمعنا يهمشون حدودك. ويطلقون عليك ألقاباً لا أفهمها. مره ، عورة، قليلة الحيلة، يعطونك منزلة أدنى رغم أنه فى الماضى كان الرجل حين يريد أن يُمتدح فلا يخاطب إلا إمرأة. كانت العاهرة لديهم بينة والشريفة بينة . وبين هاتين المنزلتين تظهر الحقيقة. لقد ظلمت نفسك حينما أمتطيتِ صهوة العري وتلك المعدة العارية وتعرية البطن والأفخاذ، وإبطك مجمع القمامة في إعلاناتك على شاشات التلفاز، كل ذلك هو ما أوقعك في فخ لزج لا يفرق بين العاهرة والشريفة، تراقصتِ شبه عارية أمام من لهم إرث كبير في تاريخ الإماء والغانيات فوضعت نفسك بيدك على أسنة رماح هؤلاء الغزاة حين ينعمون بالسبايا، إن جداتك كن عظيمات ، حرات، يحكمن ممالك في مصر وسبأ و العراق والشام، أما أنت فبطنك العارية وخاصرتك الملتوية لا تقوى على الذود عن حقها ، ما عدت تقدرين على حكم نفسك، لقد تعطلت البوصلة. إلى أي الإتجاهات تسيرين؟ تلاشت ملامحك بين هذه وتلك . لمن أنت تنتمين إذاً ؟

(تصرخ و تقذف بالمرآة على الأرض وتدقها بقدميها حتى تتشظى وهي تصرخ، تلتقطها وتنظر بها فإذا بالصورة تبدو مشوهة وتنعكس

الصورة المتشظية على الستائر المعلقة ، فتحاصرها من كل الاتجاهات، تدور حول نفسها وتنظر في الصور المتشظية وتتأملها)

يا لقبحك، أتذكرين حين كان أبوكِ وأمك يدللان أخاكِ الذي في مثل سنك؟ يصفعونك على خديك لإرضائه ليس إلا؟. أتذكرين أمك حين تطعم أخاكِ الحلوى وتذكر اسم الله عليه خوفا عليه منك ومن عينيك الواسعتين وانتِ تشتهين قطعة الحلوى تلك؟ جمالك كان مقذوفة عليك . ينعتونك حندورة حين يغضبون، أي واسعة العينين، أو حِمْرة أي حمراء الخدين، وأنتِ تودين ألا تحملين هذه الصفات الجميلة التي تسبب لك الأذى والسباب، أما الآن فإن تبدين جميلة تلاحقك الأعين وتلدغك ألسنة المارة، تباً لهذا الجمال اللعين ولتلك العادات المقتبسة وتلك الخلخلة في ميزان المعرفة. من أنتِ ؟

(تقذف المرآة المتشظية تحت قدميها فتزداد تشظيا ثم تلتقط شظية فتجرحها ويسيل الدم بغزارة، يسيل الدم على الستائر، تخاطب الصورة)

الآن تتشظى صورتك بألف ألف شظية إن أمسكت بأحدها ذبحتك كشفرة حادة، إن لم تكن قد ذبحتك خفية. **(تتأمل الصورة المتشظية على الشاشات).**
ما أقبحك . ها أنت بألف عين، وألف أنف، ها هي

حدقاتك ممزقة ولك مئات الأسنان كأسماك القرش، وأشداق واسعة لا نهاية لها بفم كفم السعلاه. هذه هي صورتك الحقة والتي ترضي الجميع. **(تتجول في المكان وهي تتحسس الأثاث قطعة قطعة)** هذه هي الأريكة النادرة ، قطعة واحدة ليس لها نظير في العالم كله، صنعت قطعة واحدة فقط، اشتريتها حينما أعطاني أخي جزءاً ضئيلاً من ميراث والدي، أحبها لأن بها رائحة أبي، بها عبير ذكراه التي تطاردني **(تدس أنفها في الأريكة تستنشق رائحتها)** بعض نقوده وذكراه، أما باقي ما خصه الله لي من ميراث فلا أستطيع الحصول عليه ، فالمرأة في مجتمعنا لا تأخذ ما يخصها من مال أبيها وإلا انهالت عليها اللعنات وقاطعها المجتمع ونبذت كالعاهرة أو اللقيطة. آه..أشعر بالجوع رغم إرث كبير تركه والدي، لكن مخالب إخوتي دونه، كيف يضع رجل غريب قدمه في إرث والدي! هكذا يعلنون للمارة عن إمرأة سيئة السمعة أخذت ميراثها من إخوتها. لكن لا بأس سأعمل بأي وظيفة لإطعام طفلي القادم. **(تؤدي دور الزوج)**

: ياحبيبتي. أنت تعلمين متاعب الحياة ومطالبها، وأيضا خروجك من المنزل له ثمن كبير، ولذا فإن أردت العمل

خارج المنزل فعليك أن تعطيني راتبك بالكامل ، نظير سماحي لك بالخروج ونظير عملك.خارج إمارتي . كانت أمي وأمك وجدتي وجدتك لا يخرجن من البيت إلا إلى القبر، ولذا فأنا سأضحي وأقبل خروجك. اتفقنا؟. **(تعود لدور الزوجة وتجلس على المكتب)** لا بأس سأعطيه كل مرتبي وكل ما معي نظير أن أرى الشمس (**تلتقط المرآة المتشظية وتحاول لملمتها. هي في دور الأم)**:

يابنتي . هذا عملك وهذا مالك ، ليس للرجل فيه أي شيء ليس للرجل أي سلطة على مال إمرأة . هذا عيب عليك وعليه. هكذا قال الدين والعرف أيضاً. كان أباكِ يخجل أن يأخذ مني أي شئ، كيف تغير الحال؟ فالزمان والمكان لم يتغيرا ؟ نحن نحن ، لم يتغير شئ ، ماذا دهاك.؟ أنت ضعيفة ومتخاذلة ، لا حيلة لك سوى صوتك المتعالى أقبح من صوت البوم، هو ما أضاع قيمتك، فالحق لا يؤخذ بالصوت بقدر مايؤخذ بالنبل والإقناع، من أجل أن يعود كل شئ إلى نصابه، خذي كل ما يؤول لك فهو من حقك ، فسيأتي يوم تحتاجين فيه لكل قرش فرطت فيه، أما هو فمكلف بك وبمن يأتي من بطنك . هو الرجل . ألا يكفي أن ليس له أحد سواك، فلا أم ولا

أب ولا أهل ولا حتى جيرة . لم نرَ أنثى تسعى لإطعام صغارها إلا في الحيوانات، في إناث الأسود فقط **(تعود لدور الزوجة)** لقد صدقت. ها أنا الآن أتضور جوعاً ، من أين لي برغيف يسد رمقي **(تتحسس بطنها مخاطبة جنينها)** قلت لك إهدأ. فلن أسمح لك بالحراك، تدق جانبي برجليك الصغيرتين ، أجائع أنت ؟ أعرف أنك جائع وتطلب الطعام لكن من أين يا طفلي الحبيب؟ فالحرة لا تأكل بثدييها ، هكذا قالوا.. لاشئ في هذا المنزل سوى الفئران الجائعة، تدق جحورها كما تدق أنت أحشائي أتحب أن أراقصك؟... حسنا...

(تمسك بأحشائها وترقص وتغني في نشوة بالغة ، تتجه للبيانو وتعزف عليه مقطوعة رومانسية وتغني أغنية تحمل معاني العزلة والخوف فيختلط صوت الرعد والبرق والمطر والرياح بصوت العزف والغناء، يتعالى محاولة أن يتغلب على أصوات العاصفة، يتوقف البيانو فجأة فتتوقف تدنو من البيانو وتتحسسه تحاول أن تفتحه، تستنشقه)

إف. إنها رائحته، بدأ يقذف أنفاسه، يالها من رائحة تشعرني بالنشوة، لقد احتفظت بها في أنفي إلى الأبد، فهو من أخذ مني كل شيء، طهري وبراءتي، ومالي وعنفوان صباي. لن أتركه يرحل أبداً سأقضي معه ساعات الليل حين تغفو الأعين وتهدأ الأنفس، وتضاء الشموع ،

أحتضنه بين ذراعي (**تحتضن البيانو**) لأنتشي من جديد، فكيف لي العيش بدونه! فالمرأة لا بد أن يكون لها رجل. لن تحيا بدونه. عبثا أقوال النسوة تلك،:الحياة بدون رجل!... عبثاً أن تحيا المرأة بنصف كيان، بنصف وجود، وبنصف رائحة. ها هو بين ذراعي كل ليلة، أزف إلية عروساً أبدية تستكين بين أحضانه كل مساء.

(تدق طبول الزفة وتسمع الزغاريد ، تتجول بفستانها الأبيض في نشوة تملأ أرجاء المكان، تخفت الإضاءة وتأخذ في إيقاد الشموع في كل مكان وتغني)

هذي ليلة بنتنا من ألف ليلة
شهريار في بيتنا في كل ليلة
والحكاية ترتوي بالدم كيلة كيلة
يا آذان الفجر أذن بنتنا في ألف ليلة

(تخلع طرحة العروس من فوق رأسها ثم تلقي بنفسها على الأريكة وهي تبكي تقترب من البيانو بخوف شديد)

سأفتحه هذه المرة وبلا تردد. كان يضطجع بجانبي لكن تنفسه يتعالى شيئا فشيئاً ، دقات قلبه تسابق نبضي المتسارع ، عيناه تتسعان وكأنها تستجير بي، يقبض على يدي بشدة تستثير العون مما هو آت ، هز رأسه وعينيه

تقول لي سامحيني كم أخطأت في حقك، لم أعد أفهم شيئا حينها سوى أن نصفي الأسفل قد توقف عن الحراك، لم تسمح لي الأمطاربالخروج، فومضات البرق تخطف البصر، وصوت الرعد يزمجر وكأن الطبيعة ترفض نجدته، محتجة على أفعاله، لكن لا بأس ها هو هنا الآن، ها هو يزف إلي كل ليلة في عرس أبدي أشعل الشموع كل مساء وأدق الطبول وأعزف الألحان بين ذراعيه دون سواه **(تتجه للبيانو وهي ترتعد)** أفتحه أم لا. لكنني خائفة، وفي نفس الوقت أشتاق إليه، سأفتحه

(تفتحه وتخرج منه جثة الزوج محنطة وهي ترتعد من الخوف)

ها أنت يامن تعيق أوتار هذه الآلة وتمنعها من العزف، ها أنت بين يدي، أنا من حنطك ووضعك بين أوتار هذه الآلة،لكنني الآن أكثر جرأة فتحتها وبدون خوف فالخوف والفعل لا يجتمعان أبداً.

(يتحول البيانو إلى سرير تضعه عليه وتتمدد بجانبه، تطفأ الأنوار فلا يبقى سوى ضوء الشموع)

يالها من لحظة أبدية ، لن تبارح فراشي . إنك لي وحدي فقط. وبدون عناء

ستار

باي باي جيلو

طه عدنان ـ المغرب

اللوحة الأولى

تُضاء خشبة المسرح تدريجياً على شاب في عقده الثالث يقتعد كرسيا ويتحرّك بشكل يوحي بأنه بين شرطيين.. ينبعث صوت المضيفة تعطي إرشادات السلامة بغَنْج اعتيادي. يتحرّك الشاب في مقعده مرتجفاً.. يتواصل صوت المضيفةً.. صوت محرّك الطائرة.. الشاب يقرأ متوتراً دعاء السفر

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ.

يتحرّك بما يوحي بأن الشرطيين المتوجّسين من هذه التمتمات يُحكِمان قبضتهما على ذراعيه. يتلفّت في اتجاه الرّكاب الوهميين شادّاً ذراعيه، فيما تنبعث أصواتٌ وهمهماتٌ تعبّر عن الهلع بمختلف اللغات. يعتدل في مجلسه متوجّهاً بالخطاب إلى الجمهور

ما هَمَّ أن يُرحّلوني. أنا فقط خائفٌ من الطائرة. وأنا صغير، كنتُ أحلم أن أصير طيّاراً.

«تطيرُ مع الطيور. سر، الله يطيّرك» تصرخ أمي منزعجةً من شغبي. أمّا والدي، فصفعاته السّديدة تجعلني أطير من مكاني بلا أجنحة.

يغنّي محرّكا ذراعيه فيما يشبه التحليق

«طيري يا طيّارة طيري يا ورق وخيطان...»

طالما حلمتُ بالطيران. في الابتدائي، كنتُ أحبّ المشاركة في الأنشطة المدرسية.

يغني

«يا طيرة طيري يا حمامة...»

كان المعلم يطلب منا أن نُحلّق. أن نُرافق الأداء بالتعبير الجسدي عن الطيران. أنا الوحيد الذي يطلب مني أن أهبط من حين لآخر. سرعان ما أنسى الأغنية لينبُتَ لي جناحان أنخرط في التحليق بهما بعيداً عن سرب التلاميذ.

لديّ ذاكرةُ عصفور. تطير المعلومات من رأسي بأسرع مما تحطّ. القصيدة الوحيدة التي عَلِقت بذاكرتي كانت في وصف الطائرة.

يقلّد طريقة التلاميذ في استظهار المحفوظات

مركبٌ لو سلَفَ الدّهرُ بـه / كان إحدى معجزات القُدمـــاءْ

نصفهُ طيرٌ، ونصفٌ بشـرٌ / يالَهـا إحدى أعاجيب الفضاءْ

ظلام

اللوحة الثانية

يقتعِدُ الشاب كرسياً ويداه مقيّدتين في مشهد استنطاق

اسمي؟

جيلو.

اسم جيلو غيرُ مسجّلٍ في محاضركم؟!

تتغيّر الإضاءة ليقف جيلو منتصباً وسط الخشبة مخاطباً الجمهور

الجيبلاليبي.. هكذا قرّر والدي سي بوعلام تسميتي إكراماً لخاطر صديقه الجيلالي العطّار. أوّل من دخل عليه مُهَنّئاً بولادتي. سمعتُم قطعاً بالحديث الذي يدعو العباد إلى تسمية أبنائهم بأسماء الأنبياء، لكن هل دعا أحدٌ إلى تسميتهم بأسماء الأصدقاء؟! أبداً.. هذه بدعةٌ ضالّةٌ مُضِلّةٌ ابتدعها والدي ليجعلني أولدُ هكذا بِاسْمٍ هرِم.

جدتي كانت تدلّعني بتصغير اسمي لتنادي عليّ: الجويليلي.. يااويلي.. للإشارة نحن شعبٌ له ولعٌ

عجيبٌ بتصغير الأسماء.. كأنها نستكثر على الخلق أسماءهم! أما عمّي المعطي، فكان يناديني: جلّول.

وأنا أتفرّج على المسلسلات في التلفزيون كنتُ أكره اسم الجيلالي وكلّ مشتقاته.. فالجيلالي إمّا قرويٌّ أهبل أو حارسُ عمارةٍ معتوه. ولا مرّة صادفتُه مهندساً أو طبيباً. وعندما يكون لك اسمٌ عتيق كاسمي تكتشف سريعاً أن رفاقك الصغار أوغادٌ كبار لا يُفَوِّتون أدنى فرصةٍ للتّنكيل بك، بل ويجعلونك تلعن اليوم الذي جئتَ فيه إلى الحياة تحمل مثل هذا الاسم المُضحك.

تنفرج أسارير وجهه

جيلو..

يصيح على طريقة الأطفال وهم ينادون أترابهم

جيلو.. جييلوو.. جيييلووو

هكذا بدأ الأتراب ينادونني وأنا صغير. كانوا يطرقون باب بيتنا ليسألوا والدتي: «خالتي، جيلو موجود؟»

يقلّد والدته

«هنا لا وجود لجيلو.. الجيلالي مشغول» هكذا تجيبهم وهي تصفق الباب.

رغم انزعاج أهلي من هذا الاسم الطارئ، كنتُ راضياً

عنه تماماً، بل واعتمدتُه اسماً رسمياً بعد ذلك.

جيلو.. اسمٌ سهلُ النُّطق.. رشيقٌ ومرن.. لا يعني شيئاً ولا يُحيل على شيء. اسمٌ لا مضمون له. هذا أسْلَم في عالم غير مضمون. به يمكنك فتح حوارٍ سَلِسٍ وديمقراطيٍّ مع العالم. عندما أُسألُ عن أصلِ هذا الاسم أختلق الجنسية المناسبة حسب أصل السائل وفصله. مرّةً أكونُ إيطالياً أباً عن جدّ. بدليل المخرج جيلو بونتيكورفو الله يرحمه ويحسن إليه كما أحسن إليّ أكثر من مرّةٍ من حيث لا يحتسب. (**بلكنة إيطالية**) تشاو جيللو، تشاو تشاو.. ومرّةً يوناني من أمّ لبنانية. مرّةً إسباني من أصلٍ مغربي.. (**بلكنة إسبانية**) هُولاً جيلو.. وأحياناً مغربي من أصولٍ أندلسية. هذه نادراً ما أستخدمها رغم أنها تبدو الأكثر إقناعاً. آه..اكتشفتُ مؤخراً وجود مستوطَنةٍ محاذيةٍ لبيت جالا قرب القدس اسمها «جيلو»، وأيضاً قريةً تدعى «وادي جيلو» في جنوب لبنان.. يعني أشياء تضفي على اسم جيلو طابعاً إشكالياً وتُمَكّنُني من اختلاق أصولٍ وقصصٍ ميلودراميةٍ كلما لزم الأمر. ليس كالجيلالي، اسمٌ عربي لا غبار عليه.. اسمٌ يتضمن هوية بكل تأزماتها.. اسمٌ معرّفٌ وواضحٌ كالفضيحة.

يخاطب الجمهور بحماس

لو أنجبتُ طفلاً وسيماً من ليزبيت..

ينتبه إلى أن لا أحد يعرفها، فيشرح

أوه.. ليزبيت. صديقتي الفلمنكية. سأدعوها إلى العشاء قريباً.. لو أنجَبَتْ لي طفلاً جميلاً ببشرةٍ بيضاءَ وشعرٍ ناعم سأطلق عليه اسماً متحضّراً لا ترقى إليه الشبهات.

ظلام

اللوحة الثالثة

إضاءةٌ شاحبةٌ على جيلو وسط الخشبة فيما تظهر صورة والده على شاشةٍ في العمق

مات والدي فجاء عمّي المعطي من بلجيكا لحضور مراسيم العزاء وتقسيم التركة: المزرعة التي تركها جدي. (ساخراً) ثلاث زيتوناتٍ ودارٌ خرِبةٌ ومعزتان وكلبٌ يُسمّونها مزرعة.

في المساء، سمعتُ أمي تقول لعمي

متقمّصا شخصية والدته

«والله يا سي المعطي أنا خائفة على الجيلالي. لا يبدو أنه سيحصل على الباكالوريا هذه السنة، وحتى لو أخذها ماذا سيصنع بها؟ شباب الحيّ بشهادات جامعيةٍ كبيرةٍ يَسْنُدون الحيطان طوال النهار كما لو يخْشَون عليها من السقوط. شُفْ له طريقةً تأخذه بها معك. هكذا أتفرّغ لتربية إخوته اليتامى. فالله يرحـــــم سي بوعـــــلام، هو الوحيد الذي كان قادراً على ردعه».

يستعيد شخصيته مواصلاً بقلقٍ ظاهر

لم أفهم، هل أنا قواتٌ غازيةٌ ليتمّ ردعي!؟ ثمّ ألستُ يتيماً أنا الآخر!؟ كأنها تريد أن تتخلّص منّي!؟ لكن موضوع السفر يُناسِبني.. (ترتسم على وجهه ملامح السعادة) بلجيكا. سأركب البابور معهم لأرحل إلى بلاد الشوكولاتة والجبنة والشقراوات.

يدور في الخشبة معرباً عن فرحه في حركاتٍ راقصةٍ على إيقاع أغنية الشاب رضا الطلياني «يا البابور يا مون أمور» والأضواء تتراقص من حوله. يقف وسط الخشبة ليواصل الحكي فيما تعود الإضاءة الشاحبة

في الصيف، جاء عمّي المعطي وطلب مني أن أجهّز حقيبتي. ضمّتني أمي بحنانٍ لأول مرة في حياتي. ودّعتني وهي تبكي. أما أنا فكنت مشغولاً بالتفكير في الحلاوة التي تنتظرني هناك. جلستُ جنب ابنَيْ عمي في المقعد الخلفيِّ للسيارة نتهارش لتنهرَنا زوجته

مقلّداً زعيقها

«اهدأوا أيها البغال».

بوصولنا إلى ميناء طنجة أمرني عمّي بالاختباء تحت المقعد الخلفي للسيارة

تَخْفِتُ الإضاءة تدريجياً عليه وهو يتكوّر فوق الخشبة

حذّرَني من إصدار أيّ حركةٍ تَشي بوجودي قبل اجتياز الحدود الإسبانية. (بصوت خافت) سمعتُه يتفاوض مع الجمركيِّ المغربي. لا شكّ أنه نَقَده بعض المال لتسريع الوتيرة.

حينما دخلوا الباخرة.. ركنوا السيارة.. وغادروا تباعاً.. بقيتُ وحدي مختبئاً لأشعر بالرّهبة لأول مرّةٍ في حياتي. عندما سمعت صوت انطلاق الباخرة صرخت كالمسعور: عمّي عمّي..

لا مُجيب. أحسستُ بتقطّع أنفاسي وتسارع دقّات قلبي. كدتُ أختنق.

ينهض ضارباً بكلتا يديه على زجاجٍ متخيّل

خرجتُ من مخبأي مرعوباً وأنا أصرخ: عمّي عمّي..

ينهار. صمت

عندما رجع عمّي ليستعيد سيارته نهرني: «استُرنا الله يفضحك».

فتح عمّي زجاج السيارة لأعود إلى مخبأي.

يتكوّر من جديد على الخشبة

جرّبتُ أول تماسٍ مع الموت.

ظلام

اللوحة الرابعة

صوت جيلو يخترق الظلام مترنّما بأغنية عليّة التونسية

أنا من أنا؟

يا تُرى

في الوجود؟

وما هُو شأني؟

وما موضعي؟

جيلو وسط الخشبة. تسلط عليه الإضاءة تدريجياً حتى تكتمل لينخرط في حالة بوح أمام الجمهور

«هل أنتَ لاجئ؟»

لا أعرفُ بِمَ أجيب على هذا السؤال؟

يلتفت كما لو أن السائل واقفٌ جنبه، مجيباً

ياريت.. (**يغنّي**) أنا من أنا؟

أنا مخلوقٌ غير شرعي. من المفروض أن أعتذر لك عن وجودي العبثيِّ أمامك. وجودٌ يساوي العدم قانونياً،

بل هو خرْقٌ سافرٌ للقانون. بودّي لو كنتُ لاجئاً من فلسطين أو العراق أو الصومال. لو كنتُ ضحية حربٍ أهليّةٍ أو كارثةٍ بيئيّةٍ أو أيِّ مصيبةٍ تجعلكَ متعاطفاً معي الآن. أيّ شيء يُحوّلني إلى ملفٍّ جديرٍ بالدراسة. أنا للأسف لا قضية لي. (**ساخراً**) وبلدي يبدو آمناً وبدون مشاكل. أنا قطٌّ نَزِقٌ هاربٌ من دار العرس. أرأيتَ ما أخْرَقني؟

يتذكّر، محوِّلاً نظره إلى الجمهور

أوقَفوني مرّة بالدانمرك. سافرتُ إليها ظنّا بأنّ العشب أكثر طراوةً في مروج الآخرين.. ربما خَشوا أن أزاحِم بقراتهم على الكلأ، فأخذوني إلى مركز الشرطة. جاهدتُ لأبدو مهزوماً كما يفضّلوننا عادةً وادّعيت أنّي هاربٌ من دكتاتور بغداد. حاولت استرجاع بعض السيناريوهات التي كان صديقي صامد الربيعي يبيعها للسوريين والأردنيين الذين يقدمون طلبات لجوء باعتبارهم عراقيين. صامد يدّعي أنه فنان مسرحي رغم أن ليس له من إنجاز سوى سيناريوهاته التي حوّل من خلالها حيوات الآخرين إلى ورشات مسرحية. كان يؤلف لهم قصصاً يصعب تكذيبها ثم يدرّبهم على اللهجة المناسبة. جاءني الشرطي الدنماركي بمترجمٍ عراقي: «الأخ من

وين؟»..

أجبته بلهجة عراقية مُتفاصِحَة: «شلونك عيني؟ آني من بغداد.. عراقي وشارد من صدّام».

حدجني بنظرة ظافرة ترجمتُها سريعا في خاطري: «على هامان يا فرعون؟».

لم يدم الحوار طويلاً، إذ سرعان ما ودّعني المترجم باستخفاف مَنْ كسبَ المعركة من أول جولة: «الله ويّاك عيني».

أجبتُه بمغربية فصيحة: «بالسلامة خويا، الله يعاون».

أعطوني أمراً بمغادرة التراب الدانمركي (**يدسّه في جيبه**) لأقفز في أوّل قطارٍ باتجاه بروكسل.

ينبعث عويل القطار ومعه صوت إلياس خضر يغنّي «مرّينا بيكم حَمَد».

ظلام

اللوحة الخامسة

يُضاء جزءٌ من الخشبة على طاولةٍ صغيرةٍ عليها غطاء أحمر، طبقان، شوكات وسكاكين. فتح جيلو قنينة نبيذٍ أحمر وجهّز كأسين ثمّ أحضر شمعداناً ثبّتَ وسطه شمعةً حمراء

ليزبيت أجمل ما مُنيتُ به في هذه البلاد. هذه البنت فيها شيءٌ غيرُ فلمنكيٍّ على الإطلاق.

آه ليزبيت.. حبّوبةٌ وخجولةٌ فوق ذلك. أوّل مرّةٍ أصادفُ صبيةً أوروبيةً وعذراء.

محاولاً إقناع الجمهور

آه، والله العظيم عذراء. أقسم بشرف المغاربة والفلمنكيين وجدتُها عذراء. بنتٌ ريفيةٌ من قريةٍ في اللامبورغ تدعى «بير».. يعني الإجاص. اسمٌ تفوح منه الطبيعة والطّهر. الإجاص فاكهةٌ فاضلة، ليس كتفاح الخطيئة. ثمّ لو لم تكن بنتاً فاضلةً لما اشتغلت مربيةَ أطفالِ برلمانيٍّ أوروبي من الحزب المسيحي المحافظ في هولندا. بنتٌ محافظةٌ

تتحدّث مع أطفاله بالهولندية دون أن تصرخ مثل الهولنديات: «اللعنة..verdomme»

من المهم أن يظل الأطفال على علاقةٍ بلغتهم الأمّ. وليزبيت لديها بالإضافة إلى اللغة فائضٌ فطريٌّ من الأمومة. بينما أمّ الأطفال لا تترك حفل استقبالٍ إلاّ ورافقت زوجها إليه. لها ولعٌ بالشرب والسهر. وعندما ترجع ثمِلةً تكون صالحةً فقط للتكوّر مثل كيس بطاطا على السرير. (**ينظر إلى الساعة**) لكن لماذا تأخّرَت؟

صمت قصير ثم يواصل

ليزبيت.. الثابت الوحيد في وجودي المتقلّب. معها دخلت الحياة من بابها الواسع. تجلب لي الروايات وتأخذني إلى السينما.. علّمتني بعض الكلمات بالهولندية.. تنفع مع البوليس الفلمنكي كثيراً. يكفي أن ترطُنَ قليلاً بلغتهم ليتعاطفوا معك.

يخاطب شرطيا وهميا

«Ik ben Gillo. Ik ben een goed mens»

ليزبيت درّبتني أيضاً على الأنترنت، لأفهم أن للوجود معانٍ عابرةً للجغرافيا. مع الأنترنت أجدُني كائناً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فأنا موجودٌ ولديّ عنوانٌ، بل

عناوينَ وأسماءَ تتعدَّدُ بتعدُّدِ المخاطَبين..

كمن يرقن على كومبيوتر

«أنا أدردش، إذن أنا موجود..

آي لايك..

آي لايك يو.. آي لوف يو..

آي (شمس) يو.. آي (قلب) يو.. آي (قبلة) يو..».

مع ليزبيت، تُفتح كلّ الأبواب الموصدة. حتى أبواب الملاهي الليلية التي يقف أمامها حرّاسٌ غلاظٌ شدادٌ بمجرّد ما يرون سحنتك يُفهمونك من بعيدٍ بأن الملهى خاصٌّ بالمنخرطين. ليزبيت بطاقة انخراطي في الحياة بكامل أُنْسها. عندما أجلس رفقتها على سطح مقهى، لا أحد يجرؤ على سؤالي عن الهوية. فهويتي ليزبيت. أضعُ رجْلاً على رجْل وأتصرّف كنبيلٍ خارجٍ للتوِّ من فيلم كلاسيكي. ومثلما يقتضيه المشهد أهبها هديةً تليق ببهاء اللحظة.

يُضيِّع نظرته السارحة ليعود مرة أخرى إلى الساعة

لماذا تأخّرت هكذا؟

يغمغم ويحاول أن يشغل نفسه بترتيب المائدة

أمضيتُ نهاري في تحضير العشاء. ولأجلها جلبتُ أفخر

قنينة نبيذ بوردو في السوبر ماركت.

يُشرِق وجهُه ليستطرد

تحبُّ نبيذَ بوردو. لكنها سرعان ما تسكر. تحمرّ وجنتاها لتُسبغ على وجهها الكثير من التوهّج. أنا أيضاً أحب نبيذ بوردو. وأحبّ ليزبيت. لكنّي أكره أن تتأخّر هكذا دون أن تكلّف نفسها إشعاري. لقد أهديتُها آيفون آخر موديل. فِيمَ تستخدمه إذا لم ترسل لي منه ولو رسالةً قصيرةً تُعلمني بأنها ستتأخر؟

يواصل ترتيب المائدة

قضيتُ اليوم كاملاً في هذا المطبخ الحقير. أسوَأُ بلاءٍ قد يُبتَلى به المرء هو أن يجد نفسه مُجبراً على اقتسام المطبخ مع هذا العالم الثالث.

ينظر إن كان هناك أحد من جيرانه قبل أن يعلّق لافتة صغيرة مكتوب عليها «الرجاء عدم الإزعاج»

سأمنعهم من تلويث المكان، ولْيَحمِل كلٌّ منهم طعامه الرديء إلى غرفته. على العموم، هم عندما يلحظون وجود ليزبيت يُخلون لي الجوّ. (يتابع مرور طيفٍ من الخلف) باستثناء هذا الفأر الصيني، يدخل ويخرج دون أن يُكلّف نفسه عناء إلقاء التحية. (**مخاطباً إياه**) سأحطّم

رأسك يوماً يا لاو زي. ماذا تظن نفسك؟ إمبراطور الصين؟؟؟

متوجّهاً إلى الجمهور

أعرف أنهم يحسدونني على ليزبيت. نظراتُهم تشي بذلك. تقرُّبهم منها بالابتسامات المتزلِّفة والمبالَغة في التهذيب. هذا القنفذ مراد ضبطتُه يوماً يُبالغ في ملاطفتها في المطبخ. الوغد.. بمجرّد ما يطلي شعره الأشعث ب»الجيل» يتوهّم أن سحرَه لا يُقاوَم. يطلي شعره بسخاءٍ فيبدو كما لو أنها أمطرت فوق رأسه دوناً عن العالمين. طبعا، فهو لا يدفع ثمنه. أنا الغبيُّ الذي يجلبُه له. النذل، لأنه يتوفّر على بطاقة إقامةٍ سنويةٍ يطوف لتمديدها كل معاهد البلد متسوّلاً تسجيلاً جديداً يظنّ أنه قطع الواد ونشفت رجلاه. لم أناقش معه الموضوع، لكنّي مارستُ عليه العقوبات الذكية. قطعتُ صنبور المساعدات حتى أصبح يتمسّح بي ككلب. امْبولو الكونغولي يبقى أقلّ لؤماً. قال لي مرّةً بأنني لستُ مناسباً لها وأنها تُجاريني فقط لأنّي أغمُرها بالهدايا.. أكبرتُ فيه صراحته. (**يضيفُ ناقماً**) الحقير!!

ينظر إلى ساعته منفعلاً. يراقب هاتفه المحمول. يبدو عليه التوتر. يتصل بليزبيت على الهاتف دون جدوى

لماذا لا تجيب؟ أو على الأقل تبعث رسالة. كأنّي نظّفتُ المطبخ فقط لهؤلاء الأجلاف. وهذا الأكل، ماذا سأفعل به؟ سأصابُ بجلطةٍ إذا ما انتهى في بطونهم.

يتهالك فوق الكرسي منكسراً

ليزبيت.. حقيقتي المخجلة. الحقيقة التي يعرفها الجميع إلاّي. والمشكلة أنني أحببتُها. بل ولأنّي أحببتُها، لم أعد أرى شمس الحقيقة الواضحة. الحبُّ والحقيقةُ أمران متناقضان. من أجل الحبّ، تلزمُك جرعةٌ كبيرةٌ من الوهم. يبدو أنني أعيش هذا الوهم وأستطيبُ مرارته.

ظلام

اللوحة السادسة

جيلو جالساً. يشرب كأس نبيذ وهو يحوّل نظره بين الساعة والمحمول. فجأة، يرنّ الهاتف. يجيبُ بلهفة

آلو ليزبيت.. حّبي.. أينك؟.. لماذا لم تخبريني بأنّك ستتأخرين؟ (**يصمت قليلاً.. تتغيّر ملامحه**) لن تأتي؟.. لماذا؟.. لا.. لا تمزحي معي يا ليزبيت. لقد قضيتُ طوال اليوم في هذا المطبخ القذر. نظفتُه وأعددتُ العَشاء.. ليزبيت، اسمعي.. دمي يغلي يا ليزبيت فلا تمزحي معي. (صمت) آلو.. ليزبيت.. آلو.. (**أقل حدّة**) لا لا.. لستُ سكراناً.. شربتُ فقط كأسي نبيذ.. (**يهدأ وتنفرج أساريره**).. آه، بوردو الذي تحبّين.. يالله يا ليزبيييت.. تعالي.. (**يحتدّ من جديد**) لكن ألَم نتواعد على اللقاء الليلة؟! هل قصدُك تُجنّنيني يا ليزبيت؟ لو كان هذا قصدُك؟ «برافو»، سيكون لكِ ما تشائين.. (**مستنكراً**) هما يذهبان إلى العَشاء وأنتِ لا؟!.. يالله ما عليش أنتظرك. نَوِّمي الأطفال وتعالي. سأنتظرك..

سيعودان ثمِلَين ولن ينتبها لغيابك.. تُضحكينَ عليّ حثالة العالم الثالث وتريدينني أن أهدأ؟! اسمعي أيتها المخلوقة.. لا لا لا.. اسمعي اسمعي..

كيف؟!.. حسناً بسيطة.. لا تريدين لنا أن نلتقي بعد الآن؟!.. طيب، أنا موافق.. فقط عليكِ أن تُرجعي لي كلّ هداياي.. بما في ذلك الآيفون الذي تُكلّمني منه الآن.. (**باندهاش**) مسروقات؟! الآن فقط صارت مسروقات؟! لماذا قبلتِ بها إذن يا عزيزتي؟ وقبلاتك الممتنّة إثرَ كل هدية، بِمَ تفسرينها؟ أجيبي؟ لماذا تخرسين؟.. والله امْبولو معه حقّ، أنتِ مجرّد طمّاعة حقيرة.. (**صمت**) أوراق؟!! عن أيّ أوراق تتحدثين؟.. وتعرفين الاستراتيجيـــة؟!! (**هازئـــاً**) والله العظيم.. صرتِ خبيرة استراتيجية أيتها القروية الجاهلة.. هل طلبتُ يدكِ يوماً للزواج؟ (**محتداً**) لا لا، هل طلبتُ ذلك يوماً؟.. أجيبي؟.. لماذا خرستِ؟ لو كنتُ أريد الأوراق لتزوّجتُ جورجيت صاحبة البار. وجدتُ لديها العمل الكريم والحضن الدافئ. كانت تتوسّل إليّ لكي أتزوّجها. لو كنتُ انتهازيا مثلك وقبلت، لكنتُ بالإضافة إلى الأوراق، أصول وأجول في البار مثل ملك..

ماذا؟! عجوز؟! عجوزٌ وأجمل منك.. ماذا تظنّين نفسك؟ ستّ الحسن؟ انظري إلى وجهك في المرآة أيتها السخيفة. أنا رأفةً بكِ أخرجُ معك. أخرج معكِ لأجعلك تشعرين بأنوثتك. (**مستنكراً**) عربيٌّ قذر؟! أنا؟! الله يسامحك.. عربي أوكي. أقبل بها حتى ولو جاءت على شكل شتيمةٍ من غبيةٍ مثلِك، لكن قذر! لا.. خصوصا منكِ أيتها الإجاصة المتعفنة.. هل تعرفين أنني عندما أديرُ لكِ ظهري مدّعيا أنني أَلِفْتُ النوم على جانبي الأيمن مقابل الحائط، كنتُ فقط أتفادى رائحة فمك الكريهة؟.. لا تسمعين؟.. طبعاً، الحقيقةُ عصيّة على الالتقاط. لو كنتُ أتغزّل بك الآن لوصلك صوتي واضحاً.. المهم أنا أسمعكِ جيداً فماذا لديكِ؟.. (**مستنكراً**) أنا؟! تعرفين أنني لستُ مديناً لكِ بشيء. أنتِ مدينةٌ لي بكلّ شيء. ألبستُك الماركات التي كنتِ تكتفين بالبحلقة إليها في المجلات ببلاهة. علّمتُك كيف تتزيّنين وتتعطّرين. حوّلتُك إلى أنثى. تحسّسي فقط ملابسك الداخلية، وتذكّري الكِلُوتات الرديئة التي كنتِ ترتدينها عندما عرفتُك أوّل مرّة. تذكري أيتها الناكرة للجميل.. ماذا؟.. أنساكِ؟ سأنْساكِ بأسرع مما تتوقّعين.. (**يحتدّ**) لكن قبل ذلك، ستُعيدين إليّ كلّ هداياي. بما في ذلك

الكلوتات السترينغ التي لا تناسب مؤخرتك الهائجة.
فأنا لن أقبل لقرويةٍ تافهةٍ من اللامبورغ أن تستغفلني..
آلو.. آلو.. (**يصرخ بانفعال**) العاهرة.

ظلام

اللوحة السابعة

يُضاء وجه جيلو مقتعداً كرسي استنطاق وهو يجيب على أسئلة شرطي وهمي

اسمي؟

جيلو.. **(يستدرك)** أعرف ، يا سيدي مثل جيلو مثل الجيلالي.. أوووف.. المهم أنا هو.

تاريخ ومكان الولادة؟

15 مارس 1975.. بالمغرب.. طبعاً..

العنوان؟

لم يتغيّر.. **(يُجيب ساخراً وهو ينظر إلى أسفل حذائه الرياضي)** نايك 42.

دمي خفيف؟

تسأل إن كانت خفةُ الدم لديّ وراثيةً أم مكتسبة؟

لا والله مكتسبة **(محاولاً إخفاء ابتسامةٍ شامتة)**

مثل هذه؟.. مثل ماذا؟

طاااخ.. جيلو يتلقى صفعةً من الشرطي الوهمي

تصفعني؟! **(مهتاجاً غيرَ مُصدِّق)** كيف؟! تصفعني؟!

هل تعرف أنك تخرق القانون؟..

أعرف أن لا شيء لديَّ قانونيٌّ لكن صفعتك بدورها غير قانونية..

ماذا؟! سأتلقّى أضعافها بالمركز قبل أن أُرَحّل عن بلدي؟

تقول إن بوليسنا الوطني متشوّقٌ لتعميق النقاش القانوني معي هناك؟!

هم أكثر خبرةً منكم؟! تعتقد ذلك؟!

لا والله، بفضل همّة أمثالك صرتم تضاهونهم..

أوكي، لا تحتدّ. لماذا أسرق؟

لا أعرف.. يدي تسبقني..

مخاطباً الجمهور

عندما تشعر بأنك لا شيء، تصير قادراً على فعل أيّ شيء. فقط حينما أسرق، أشعر بأنّي موجود. عندما يدقّ قلبي بشدّة، أشعر بنشوةِ مَن يبتلع قرصاً ضدّ الملل.

أنتم أيضاً تحتاجون إلينا لمكافحة الضجر. من دوننا ستقتلكم الرتابة. نحن نوفّر لطبق الحياة الفاتر عندكم

البهار اللازم.. أقصد الفلفل الضروريّ.

يسقط من على الكرسي مخاطباً الشرطي الوهمي بنبرةٍ منكسرة

ثمّ، ألم تتكبّدوا مشقة القدوم لاستعمارنا؟ أسلافي لفرط غبائهم طردوكم. كان مجرّد سوءِ فهمٍ تاريخي. وهاأنذا الآن جئتُ معتذراً. جئتُكم صاغراً من تلقاء ذلي، فاستعمِروني. أنا راضٍ بذلك. ادمجوني فيكم. غيّروا اسمي. لم يُعْجِبكم جيلو، خلّوه جاك أو جان ماري. يا سيدي سمّوني ماري لا مشكل لديّ. فقط حوّلوني إلى إنسانٍ يعيش في الضوء عوض هذه العتمة. أنا إنسان مثلكم ولو أنني وُلِدت بالخطأ في المكان الخطأ. أوقفوا هذه النظرة المرتابة التي تُلاحقني.. **(مستغرباً)** ما زلتُ لا أفهم كيف يتصرّف معك البعض ككلب ليستكثر عليك بعدها أن تنبح أو تعَضّ؟! **(بتحدٍّ)** أناً لصّ.. أعترف. لكنني لستُ مجرماً. لا تفهمون الفرق؟.. ليس مُهمّاً. أنا فقط، أُطلِقُ صفير إنذارٍ للفتِ الانتباه لوجودي. أيضاً أنا أسرق بمبادئ. أسرقُ العولمَةَ شخصياً ولا أقتحم إلاّ المدن التجارية العابرة للجيوب والقارات. تلك التي تتباهى بأنظمة المراقبة المتطوّرة. وما أسرقه أوزّعه على مراد وامبولو وحتى لاو زي. أساهم في إعادة توزيع الإنتاج.. اعتَبِروني مناضلاً.. مناضلٌ طوباوي يُطالب

بمجانية العيش في هذا السجن المجاني الذي تسمونه حياةً.

تتلاشى الإضاءة تدريجياً قبل أن يعمّ الظلام

اللوحة الثامنة

جيلو في غرفة بمركز الاعتقال يعطي ظهره للجمهور. ينبعث صوت العربي باطما في موّال لناس الغيوان (واه يا ذيك الشمس الطالعة/ إذا شفتِ مَامّا حَنَّة/ قول لها راه وليدك دموعه ضَارْعَهْ/ واه يا ذيك القافلة الغادية/ إذا شفتِ مَامّا حَنَّة/ قول ليها راه وليدك ما قبلته زاوية)

أمي.. لماذا كلّما اتصلتُ بكِ سألْتِني عن الأوراق؟ وبعدها عن الأوراق الأخرى التي تستلمينها من ال «ويسترن يونيون» من حين لآخر؟ كلّ مرة عليَّ أن أبحث عن شخص قانونيٍّ يمكنُه إجراء التحويل. **(بضجر)** اتركيني ياً أمي. لستُ طاحونة نقود. **(بمرارة)** بسببكِ بقيتُ مشرّداً في هذي البلاد. بسبب الحسرة في صوتك أخشى العودة. بسبب التشفّي الذي تُبديه جاراتكِ الثرثارات.

يستدير نحو الجمهور مواصلاً بحرقة

ماذا فعلتُ لكِ يا أمي لِتَتَخَفّفي منّي؟ هل كنتُ عبئاً عليك إلى هذا الحدّ؟ حتّى يتيميك اللذين تذرّعتِ

بالتفرّغ لتربيتهما طلعت الأختُ أجْحَشُ من أخيها. أم أنك كنتِ تريدين أن يخلُوَ لكِ الجو لتفرحي بالحياة بعد أبي؟

لم أصدِّق الأخبار التي كانت تُشيعها زوجة عمي عنكِ. هذه البومة سرعان ما حوّلتكِ غيابياً إلى عاهرةٍ وحوّلتني حضورياً إلى عبدٍ رقيق. بالإضافة إلى التسوّق، أساعدها في أعباء البيت. ولمّا قرّر عمّي تحرير رقبتي من قبضتها حوّلني إلى بغلٍ في ورشة البناء. يُثني على صلابتي أمام أولاده الذين يسخرون من غفلتي. المحتال، يُقاسمني التعب بالقسطاس دون أن أظفر منه بثمن ذلك. يختار لي أشدّ الأعمال قذارةً ويضحك عليّ آخر النهار بفرنكاتٍ معدودة.

يقلّد عمّه

«العمل في الأسود يُدِرُّ الفرنك الأبيض الذي سيُخَوّلُ لك تدبير زواجٍ أبيضَ ينفعك في اليوم الأسود».

لم يعرف أن اليومَ الأسود كان يومَ رافقتُه إلى هذه البلاد. يريد أن يعوّض بي إخفاقه في تربية جحشيه. ما إن اشتدّ عودُهما حتى حوّلا بيته إلى مرقد. لا يراهما إلاّ في الليل كخفّاشين. الوغدان، بمجرّد وصولنا إلى بروكسل تنكّرا لي تماماً. نبذاني ككلبٍ أجرب. أنا الذي طالما كنتُ لهم

دليلاً ولساناً في الوطن، صارا يتنافسان في السخرية من لُكْنَتِي أمام أشباهٍ لهم في السُّخْفِ والتفاهة.

عندما صفقتُ بابهم وراء ظهري تذوّقتُ طعم الحريّة لأول مرة. صُلْتُ. جُلْتُ. صِعْتُ. ضِعتُ. تشرّدْتُ. تصعلكتُ. جرّبتُ سخافة أن تصدّك دميمةٌ لا تساوي بصلةً في سوق الحريم، وتفاهة أن تُغرَم بك عجوزٌ في عمر جدّتك، ومذلة أن يشتهيك رجلٌ في عمر تمساح. كابدتُ قسوة أن يَحْنُو عليك أحدٌ كما لو أنّك قاصرٌ أو أقلُّ من إنسان. كابرتُ. حاذرْتُ. سرقتُ. بذلتُ. هربتُ. وقعتُ.. عشتُ حياتي المؤقتةَ كحربٍ مفتوحة في انتظار لحظة الحسم.

ظلام

اللوحة الأخيرة

جيلو ينتفض عندما تبدأ الطائرة في الإقلاع. يضع الشرطيان الوهميان مرفقيهما بقوة على ظهره فيما رأسه مائل إلى الأمام وأنفاسه متقطعة. يحشرج

دعوني.. أنا لم أقتل لومومبا.. ارتكبتُ حماقاتٍ عديدة. أعترف. لكنني لستُ وغداً.. صدّقوني.. أنا أجبَنُ من أن أركب طائرةً.. يا إلهي.. أنا أجبَنُ من أن أركب طائرةً وأجبَنُ مِن أن أموت.

استعاد جيلو وضعه الطبيعي بما يفيد بأن الشرطيين أزاحا مرفقيهما عن ظهره. يحاول جاهداً التقاط أنفاسه مواصلاً ترديد دعاء السفر بصوت متقطّع

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُون..

مخاطباً الجمهور

لحظة الحسم هي هذه.. الشرطيان اللذان يُرافقانِي في

رحلة اللاعودة يتحدثان في تفاهاتٍ يوميةٍ نكايةً بلحظتي المصيرية.. (**بغضب**) كان عليّ أنْ أتحمل فظاظة هذين العجلين وهما يسحبانِني إلى المطار.. الجلفان لم يكتفيا بذلك، بل يريدان أن يضربا لي موعداً مبكّراً مع الأبدية حيثُ الحياة مجرّد ذكرى قصيرةٍ والموتُ طويييل.

يتلفّتُ يمينا وشمالا وهو يضرب الشرطيين بمرفقيه ويصرخ

كلاب.. كلاب.. كلاب..

يضع الشرطيان مخدّةً على وجهه في محاولةٍ لتهدئته. يحاول صدّ المخدة* عن وجهه. ينتفض. يحشرج

اللعنة.. إنّي أختنق.. أزيحوا عنّي هذه الوسادة العَفِنة.. أشمّ رائحة الموت يا أبناء الـ... أغيثوني.. أختنق.. أتوسل إليكم.. أنا أمـوت.. أمووت.. أموووت..

ينتفض مثل طير مذبوح قبل أن يغمض عينيه ويخرّ مغشياً عليه. موسيقى جنائزيةٌ تشق الصمت. تبدأ الإضاءة في التلاشي ليسود الظلام.

* طريقة متداولة «لتهدئة» المهاجرين غير الشرعيين أثناء ترحيلهم سبق وأودت بحياة الإفريقية سميرة أدامو في أواخر التسعينات.

خريف الذكريات

متولي عمر أبو ناصر ـ فلسطين

المكان:

غرفة متوسطة الحجم، عبارة عن مكتبة داخل منزل.

جهة اليسار هناك باب مغلق علقت عليه لوحة لإحدى الطرق في مدينة دمشق القديمة.

من جهة اليمين هناك نافذة ،و مقعد خشبي «هزاز» بني اللون.

مريم تقف عند النافذة تنظر من خلالها إلى الشارع.. في ذات الوقت تمسك بأحد الكتب تربط حوله سلسلة حديدية غليظة بحيث لا تترك أي مسافة فراغ.. لم نعد نستطيع رؤية الكتاب، فقد أصبح كتلة حديد لا أكثر.

نستطيع أن نرى خلال ذلك بأن مريم رُبطت يدها اليمنى بسلسلة غليظة تمتد حتى القدم اليمنى للمقعد.. إنها تستطيع التحرك في جميع أنحاء الغرفة ما عدا قدرتها على الوصول إلى الباب المغلق..نسمع ضحكات الأطفال الآتية من النافذة و هم يلعبون.. مريم تبتسم.. تضع الكتاب الحديدي على أحد رفوف المكتبة ..تمد يدها نحو رف آخر و تخرج ثوباً لطفلة صغيرة زهريّ اللون..

ـ الطفولة أجمل..؟

لهو ولعب دون رقابة أو محاسبة، وغالباً يكون الخطأ بسيطاً فلا نحاسب عليه.

كان عمري ثلاث سنوات عندما اشترى لي والدي هذا الثوب.

ـ أحب الألوان الفرحة، وخاصةً الزهرية منها.

يقولون إن اللون (الزهري يفك القهر) لدى الرجال، و لكنه لدى المرأة يجعلها تشعر بالتفاؤل.

حتى الألوان نلبسها ثوباً غير ثوبها..

تعيد الثوب إلى مكانه..تحاول إحضار شيء ما من رف آخر، لا تستطيع.. تصعد على المقعد الخشبي، تخرج بخوف علبة صغيرة من أحد الرفوف العالية للمكتبة..تجلس في منتصف خشبة المسرح..تخرج من العلبة ثوباً لونه أحمر.. تضعه على جسدها..إنه قصير فهو لطفلة لم تتجاوز بعد الثانية عشرة..تتجه نحو مقدمة خشبة المسرح.. نرى أن السلسلة التي قيدت يدها اليمنى تعيدها خطوة للوراء فتقع على ركبتيها، فنرى الثوب قد أصبح على طول قامتها.

كان هذا آخر ثوبٍ أحمر ارتديه...

اقتطع والدي ثمن هذا الثوب من راتبه الأول..

لم يعد صحفياً حراً. رغم أنه كان يرفض العمل في

مجلات الفضائح، إلا أنه الآن محرر ثابت في إحدى المجلات الفنية الخاصة.

منذ اليوم الأول في عمله قال لوالدتي:

ـ إنها الفتاة الوحيدة من بين ثلاثة شباب ويجب الاهتمام بها.

أنا أحب الألوان الزاهية والفاقعة على الأطفال.

هكذا قال لها، وما أن ارتديت الثوب حتى بدأت عيناه تراقبان جسدي دون أن أفهم تلك النظرة

وكأنه يرى ابنته لأول مرة في حياته.لا أعلم ما الذي رأيته في عينيه في تلك اللحظة ..

هل هي الدهشة أم الاستغراب ..أم نظرة أخرى لم أفهمها في ذلك الوقت.

غمز والدتي كي تقترب منه.. همس في أذنها بعض الكلمات وخرج سريعاً من الغرفة.

جاءت أمي إلى جانبي بارتباك وخجل، وقالت لي اخلعي الثوب عنكِ.

قلت لها: لماذا؟

علقت بطريقة سريعة.. إنه قصير ويحتاج إلى أن..

لم أدعها تكمل ..ولكنه جميل... ماما.. الثوب طوله جيد.

إلا أنها أصرت أن أخلع الثوب عن جسدي..

انهمرت الدموع من عيني سريعاً ، وكلما حاولت أمي تهدأتي انفجرت أكثر في البكاء.

ـ احتفظي بالثوب و لكن..

ـ ولكن ماذا..؟

اشترطت عليّ أن أرتدِ الثوب في المنزل ،و أن أحذر والدي، وأخوتي .

وافقت على الأمر ،و أنا لا أعلم لماذا و كيف .

المهم بعد هذا اليوم لم ارتدِ من كل سنوات حياتي الطويلة سوى الرمادي من الألوان .

ابيض ..اسود..رمادي..ابيض ..اسود..رمادي.

ثياب جميلة للمنزل ،و أخرى لخارج المنزل.

ضاقت مساحات المنزل فجأة ..بدأت البحث عن أكثر الأماكن وحشة داخل المنزل..

نعم المكتبة..إخوتي لا يدخلونها إلا نادراً ، ووالدي قرأ غالبية هذه الكتب.

أصبحت رفوف المكتبة مخبأً أهرب إليه بأشيائي المحرمة دون أن أدري..

أنا لا أحب اللون الأحمر، ولكن لا أفهم سبب احتفاظي به حتى هذا الوقت ..؟

ربما لأن والدي كان يحب هذا اللّون، وخاصةً عندما كنّا نذهب إلى الحقول الخضراء.

عندما كان ينظر إلى أزهار شقائق النّعمان الحمراء الموجودة في المروج يصاب بالجمال.

ـ اللّون الأحمر يظهر تألق هذه المروج..إنها حالة انسجامٍ لا نجدها سوى في الطبيعة.

هكذا كان يعبر عن عشقه لطبيعة الألوان و سحرها..

ـ أمي لماذا أصبح أبي يكره الألوان..؟

ـ أصبحت أنثى يا ابنتي..

ـ أنا بنت..

ـ أنت أنثى..عليك أن تنتبهي إلى تصرفاتك منذ الآن.

ـ أريد النزول لألعب مع الأولاد في الشارع..

ـ عيب..

ـ أخوتي يلعبون في الشارع ..

ـ إنهم أولاد..

ـ أنا ولد..

ـ أنت فتاة ..

ـ أريد اللعبة في الحديقة..؟

ـ ممنوع.

ـ أريد اللعبة في الصالة..؟

ـ ممنوع..

ـ أريد الخروج مع صديقاتي كما كنت أفعل دائماً.

ـ ممنوع.. ممنوع...

تعيد الثوب إلى علبته ومن ثم إلى رف الكتب.. تمسك الكتاب الملفوف بسلسلة الحديد.. تتجه نحو منتصف خشبة المسرح تضع جزء من السلسلة فوق مجموعة كتب تناولتها من الرفوف ، وقبل أن تبدأ بضرب السلسلة..

وقتها لم أفهم أن ساقيّ أصبحا أكثر بياضاً، ونهداي أكثر نضجاً و بروزاً.

لا أعلم من يسبق من .هل الرغبة لدى الآخرين أم نمو الرغبة في جسدي.

لقد كبرت..

تبدأ بضرب السلسلة.. نسمع صوت الحديد المتصادم ببعضه..

لقد كبرت.. كبرت و لا أزال طفلة صغيرة.

المحاولة تفشل في قطع السلسلة.. تتجه مريم نحو الباب بانفعال إلا أن قصر طول السلسلة يعيدها إلى منتصف خشبة المسرح.. تصدر صوت ألم من هذا الاندفاع.

ربما الأماكن الضيقة تجعلنا ندرك المسافات بطريقة أفضل، ولكنّنا في النهاية نكتشف أنّنا في المنتصف.. المنتصف مسافة زمنية نعتقد بوجود المكان فيه.. خطوة للوراء.. خطوة للأمام

لا أحد.. أنت وحدك في المنتصف..لا ريح تعيد إلينا ما سرق منّا من طرق القوافل.

الدائرة تتسع أكثر و أكثر ..تنغلق أكثر ..تضيق أكثر.. تبحثين لك عن مركز جديد ..لا أحد..

تحاولين الخروج..تُهزمين.. تضيعين في مسافة المنتصف الوحيدة..تصمدين و تحاولين التمرد أو النسيان.. تحاولين الخطأ و الصواب تبقين في الدائرة المغلقة.

تدور حول نفسها في منتصف الغرفة.. السلسلة تلتف حول جسدها فتأخذها إلى الزاوية اليمنى في عمق المسرح.. تعود بعدها وهي تمسك بعض الأوراق المكتوب عليها قصائد نثرية.. الأوراق قديمة..تقرأ في إحدى الأوراق ..موسيقى.

في دمشق الربيع أجمل..

منازل يسكنها بياض الياسمين
مروج خضراء تحتضن نهر بردى..
والأطفال في ساحات العيد..
في دمشق أمي تحيك من ضوء القمر ثياب العيد
و تنسج من قلبها الدافئ قبعةً للشتاء.

ـ هذه القصيدة كتبتها عندما كان عمري عشر سنوات.

أذكر أن والدي وعن طريق أحد الأصدقاء، دفعني للمشاركة في أحد الأمسيات الشعرية المخصصة للأطفال.وأنا على المنبر كنت أنظر إلى عيني والدي..

لا أعرف في ذاك الوقت ما هو الشعور الذي انتاب والدي ولكني سمعته بعد انتهاء الأمسية يتحدث إلى أصدقائه..

ـ هذه ابنتي.. إنها مريم عبد العزيز.. انظروا إليها جيداً كم هي جميلة.
سوف تصبح شاعرة جميلة عندما تكبر..

ـ ياه.. ما أجمل تلك الأيام..
حقاً.. الطفولة أجمل..؟

تتوقف الموسيقى تنظر إلى السلسلة التي قيدت يدها..

نعم.. نسيت إخباركم قصة هذه السلسلة.

تجلس على المقعد الخشبي.. تبدأ بتمشيط شعرها الأسود الداكن الطويل.. تنظر إلى مرآة صغيرة موجودة على المقعد..

لا أعلم كيف مرت السنوات منذ تلك اللحظة، أو بالأحرى لم أنتبه فهو لم يكن سوى ثوب أحمر لا أكثر.

كل ما أذكره أن ملاحظات والدي وأخوتي الشباب كثرت، وخروجي من المنزل أصبح نادراً إلا إذا كنت برفقة أمي أو عمتي سمراء، ولعل أكثر ما كان يضايقني خلال هذه السنوات التي سبقت دخولي إلى الجامعة هو ابتعاد والدي عني.

لم يعد يحدثني بعفويته المعتادة، فأصبحت كلماته أكثر انضباطاً ومزاحه أكثر جدية، وخروجي معه تقريباً أصبح شبه مستحيل إلا إذا كانت هناك مناسبة.

حتى إذا أردت التدلل عليه أو تقبيله كان يبعدني بطريقة غير مباشرة وهكذا بدأت المسافة تكبر بيني وبينه ولكن عشقي له لم يتغير..

دخلت الجامعة وأصبحت الأحداث أكثر تسارعاً..

مّر الفصل الأول، والثاني دون مشاكل تذكر، وعلى العكس تماماً كانت حالتي أكثر هدوءاً من أي وقت

مضى، وكنت ما أزال أشعر بتلك الطفلة الصغيرة، رغم جميع المحاولات التي مارسها علي والدي بقصد أو بغير قصد حتى أصبح شخصاً مختلفاً.

ـ لا أعلم لماذا يكون الآباء أصدقاء أطفالهم في الصغر، وعندما يكبرون...

لحظة صمت.. تنهض عن الكرسي.. تتجه نحو مقدمة خشبة المسرح.

التقيت هشام في اليوم الأول من العام الدراسي الثاني أثناء دخولي إلى المحاضرة..

هناك شيء ما.. شعور غريب.. عاطفة مختلفة.

أردت التحدث إلى أحد.. أمي توفيت قبل دخولي إلى الجامعة، وأبي.. كم أنا بحاجة للحديث إليك..

تتجه نحو النافذة.. تمد برأسها وجسدها كأنها تريد الخروج من النافذة.. السلسلة تعيدها إلى منتصف خشبة المسرح.. تحضر بعض الكتب من رفوف المكتبة.. الكتب كبيرة الحجم وقديمة جداً..

تضعها على الأرض.. تمسك بالكتاب الحديدي الذي صنعته كمطرقة صلبة.. تضع السلسلة الغليظة على الكتب وتبدأ بضربها في محاولةٍ لقطعها.. نسمع صوت الاصطدام بين الكتاب والسلسلة..

بعد جهد كبير تنهار من التعب.. تتمزق الكتب ولا تنقطع السلسلة.. لحظة صمت ..موسيقى.

في خريف 1995، السماء شاحبة والشمس غابت خلف الغيوم وبقيت بعض أشعتها الهاربة تلفح وجهي

من حين إلى آخر..في هذا اليوم تعلمت الحب و الكذب معاً..

كانت المرة الأولى التي أخرج فيها برفقة هشام في رحلة إلى البحر ، و كانت المرة الأولى التي أكذب فيها بتغطية من عمتي سمراء..

جلست فوق صخرة قريبة من الشاطئ أراقب هشام وهو يلقي بجسده النحيل من موجة إلى أخرى.

انسجام لم أفهمه.. هدوءه وغضب البحر الخريفي..

بقي لأكثر من ساعتين في عمق البحر.. عيناه تمتدان إلى أقصى ما يملك من مسافة في الأفق.

عند عودته جلس بجانبي بصمت، وعيناه لا تزالان تبحثان عن شيء ما في هذا المدى الواسع، وكأنهما تمشطان البحر.

لم أستطع احتمال صمته فقاطعته:

ـ البحر جميل.. أمر غريب يعتريك عندما تحضره..

قاطعني..

ـ وجهك يسكن هناك في أقصى هذه المسافة اللا مرئية..

حاولت تغيير الموضوع..

ـ البحر يجعل في رغبة التأمل أمراً ملحاً، فلا تستطيع سوى الصمت والنظر في هذا الوجود.

ـ أردت العودة إلى خط التوازنات الذي في داخلي ، ولكن الصراع استمر..حرب طاحنة تدور بين رغبتي ورقيبي الداخلي ...

ـ لماذا تحاولين الهرب ..؟

قلت له: إني لا أهرب مما أنا فيه.. ولكنّي أخافه..أخاف من المضي فيه.

بعدها سيطر الصمت حتى صعودنا إلى الباص..

جلسنا وكل واحد منا يبحث عن معنى لرغبته..

حاولت النظر إلى الشخوص الموجودة في الباص علّها تساعدني على الهروب من صمتي، وكلما هدأ هذا الصمت وعادت عينايَّ تنظر إلى بريق عينيه يعود الصمت أكثر قوة وضجيجاً..

ـ بَحبِكْ..

رميت برأسي تحت كتفه..

ـ بحبكْ..

يداه تداعب خصلات شعري التي تبعثرت على صدره

وكتفه.. شيء ما يسطو عليك ويستحوذ على كيانك.. لا تستطيع الفكاك منه.

كل المحاولات التي استمرت لأكثر من عشرين عام من تعلم الضوابط الاجتماعية وخلق الرقابات الذاتية ذهبت.. هكذا بسهولة دون أن تحدث أي ضجيج بسقوطها.

يداه تسرق جسدي.. إني لا أرى شيئاً.. لم أعد أرى بريق عينيه..

تنمل جسدي كله، كما اللسان عندما يمضغ زهرة النعناع.

قدمايَ ترتجفان.. الذاكرة قفزت دون مقدمات.. اختلطت الوجوه فما عدت أرى بوضوح..

إلى أين أنا ذاهبة.. هشام..هشام أرجوك لا تفعل ذلك.. أرجوك.. هي رغبتي أيضاً ولكن..؟

تتوقف الموسيقى ..تجلس بجانب المعقد الخشبي الهزاز تتخيل وجود والدها.. تخاطبه.

ـ والدي..

منذ وفاة والدتي شعرت بابتعادك أكثر عني.. لماذا..؟

لم تكن أسباباً منطقية.. أنا أحتاج إليك.. أحتاج إلى

نصيحتك..

والله إني أحبك أكثر من أي شخص في هذا العالم..

والدي..

أريد أن أبوح لك بسر كما كنت أفعل عندما كنت طفلة صغيرة لم تتجاوز بعد من العمر إثني عشر عاماً..هل تذكر صحبتنا معاً..؟

عندما كنت أخطئ لم أكن أخاف منك.. غالباً ما كنت أشعر أنني أستطيع التواصل معك أكثر من أمي.

منحتني الثقة في طفولتي وسرقتها مني.. لا أعلم هل السبب الذي اعتقدته كافٍ لتغير سلوكك معي..

لقد كبر جسدي فقط..لم يكن سوى جسد..

لحظة صمت.موسيقى...عزف منفرد على الكمان.

هل تذكر شجرة الياسمين في منزلنا.. هل تذكر..

عندما زرعتها كانت ما تزال شتلة خضراء صغيرة.. لم تشعر أنها تعنيك إلا عندما بدأت أزهارها بالتفتح..

لقد كبر جسدي فقط.. تفتح دون أن أدري.. لم أكن أريد ذلك، ولكنه تفتح ماذا أفعل..؟

لقد أخطأت.. نسيت للحظة عاداتنا، وتقاليدنا.. نسيت قوانين أسرتنا ومجتمعنا.

لا أعلم هل هي لحظة ضعف أم قوة..تاهت طفولتي فيَّ فضاء الحاضر الغريب عنك و عني ولكني أعيش فيه.

أمي توفيت، وأخوتي رحلوا عنك وعن هذا المكان، ولم يبقَ إلا أنا وأنتَ في هذا المنزل..

إنها الرغبة.. الرغبة والقانون ضدان لا يلتقيان إلا تحت عباءة الخوف والكذب.

الكذب..كانت أول مرة أكذب فيها عندما تأخرت عن المنزل لأول مرة .

كان ذلك في الصف العاشر .

صديقتي منال أرادت السير إلى المنزل مشياً على الأقدام بعد خروجنا من المدرسة .

تأخرت عن المنزل ساعة واحدة ، وعند عودتي صرخت أمي بوجهي ..

لماذا تأخرت حتى هذا الوقت..

وبشكلٍ لا شعوري قلت لها السيارة تعطلت..

لم أفعل في ذاك الوقت ما قد يضطرني إلى الكذب، ولكن وجه أمي الغاضب والقلق جعلني أشعر بضرورة الكذب..

المشكلة أن أمي كانت تعلم أنني أكذب . ليس في هذه

الحادثة فقط بل في جميع الحوادث التي حصلت بعدها وفي جميع المرات التي كذبت فيها لم يكن هناك داعٍ للكذب.

تنهض.. تخرج بعض الكتب من الرفوف ..تضعها فوق بعضها.. تتصاعد الموسيقى

صورتك لازمتني فما استطعت الاستمرار في خوض هذه المعركة، رغم علمي أنها لم ولن تنتهي..

صورتك تحرق ظلي.. تفقدني مرآتي.. ولكني أحبك..

(تركع على ركبتيها..)

لقد تعرفت على شابٍ يدرس معي في الجامعة..

أريد التوقف عن الكذب ..وعن الابتعاد عنك .

تتوقف الموسيقى..

إني أحبه من كل قلبي.. أحبه بصدق..

تمسك بالكتاب الحديدي.. تضع السلسلة على بعض الكتب .. تبدأ بضرب السلسلة..

ـ يداه تمتدان في تناغم مع قدميه.. جميع الأشياء تتطاير داخل الغرفة نحو جسدي.. الجدران تغطيها دماء طفلة صغيرة.. المكان يضيق أكثر.. طفولة تسحقها صراحة الأبناء مع الآباء.. الماضي يكسرالعتمة.. العتمة تشوه

الحاضر.. الحاضر طفلة صغيرة رمادية الألوان تقف في المنتصف تحيط بها الكتب من كل جانب..

تتوقف عن ضرب السلسلة..تفشل محاولة كسرها..تتمزق الكتب.. تتجه نحو مقدمة خشبة المسرح..

قلت له: والله يا أبي لم أفعل ما يغضبك..

نعم أنا مخطئة ولكن..

في الصباح الباكر دخل والدي إلى غرفتي حاملاً سلسلة طويلة، وقال:

حبيبتي مريم العالم خارج هذا المنزل موحش والناس لا ترحم.

أنا الآن وحيد..إخوتك هجروا المنزل، ولم يبقَ إلا أنت.

أنا أريد الحفاظ عليك.. أنا مخطئ.. نعم أخطأت معك عندما ابتعدت عنك..

سوف أعلمك كتابة الشعر من جديد.. المتنبي هل تذكرين المتنبي..؟

ـ لم أتعلم كتابة الشعر الموزون..كانت الأمسية الوحيدة.

ـ علينا أن نقرأ و نتعلم من جديد.

ـ ولكني قرأت ..

ـ ما رأيك أن نعود كما كنا سابقاً، معاً إلى الأبد..

ـ سوف أفعل كل ما تطلبه مني.. أنت والدي وأنا أحبك..

لن أذهب إلى الجامعة..

لن أقابل أصدقائي..

لن أذهب لزيارة قبر أمي..

لن أحب بعد اليوم..لن أقابل هشام.

سوف أفعل كل ما يرضيك..

سوف أبقى إلى جانبك طوال عمري.

(لحظة صمت..تنهمر الدموع من عينيها)

لم أتردد في الموافقة على ما يريد، إنه عالمي الذي أحب..

والدي هذا الرجل الذي عاش من أجلي أنا وأخوتي كيف لا أوافق على بقائي معه في هذه الغرفة إنه ذاكرتي كلّها..

وافقت ، علّي أستطيع وصل ما انقطع من الذاكرة .

وافقت على البقاء معك لأنّني تهتُ بين شرعية الواقع وشرعية الماضي و قوانينه.

بكامل إرادتي وضعت هذه السلسلة حول معصمي

ورميت المفتاح خارج النافذة..

ما أجمل أن نعيد البدايات هكذا اعتقدت حينها..

قلتُ في نفسي إنها أيام..أسابيع لا أكثر.

تحضر من بين الرفوف ألبوم صور.. تقلب صفحاته.. تجلس في منتصف خشبة المسرح.. تخرج الصور من الألبوم..

ـ مرت سنوات عدة على وجودي هنا.. لا أذكر.. توقفت الذاكرة عند هذه الصور..

في المنتصف.. الوجوه متعبة، والريح تحرق أصابعنا والفراشات..

طفلةٌ في المنتصف.. نصف ذاكرة ونصف موت..

يا أنتْ..

خذ مني كل الياسمين..

خُذْ مني تفاحتي، وكل ما تبقى من أحلاميَ المتكسرة على سطح البحيرة..

يا أنت..

تمسك بإحدى الصور .. تمعن النظر أكثر في الصورة..

التقطت هذه الصورة عند بحيرة «زرزر».

كنت ووالدي ننظر إلى وجهينا المنعكسين على سطح

البحيرة. قال لي يومها:

مهما يحدث معك في المستقبل أريدك أن تخبريني بكل شيء.

أريدك أن تكوني معي مثل هذه البحيرة الصافية..

مريم..أنت الآن طفلة صغيرة ولكن.. حتماً سوف تفهمين ما أقول:

عيشي حرة يا مريم.. أريدك هكذا حرة.. «أخت رجال»..

العلم..تاريخنا..أنا أثق بك، وأعرف ماذا ربيت.. الأصالة يا مريم.. تركت لك إرثاً عظيماً..

إنها المكتبة.

أجدادنا لم يتركوا شيئاً إلا وقالوه..

تخبّئ الصورة في أحد الكتب.. تتجه بعدها إلى إحدى زوايا الغرفة المظلمة..

تعود وهي مرتدية جلابية سوداء كانت ملك والدها.

ارتديت جلبابك، ولكنني لم أستطع ارتداء ثيابك الداخلية..

الرائحة تختلف.. ليس خطأي، إنها طبيعة الأشياء..

لكلٍ منا رائحته ولونه، وتجربته..أنت تغيرت ..

تحضر بعض الكتب..تضع السلسلة فوقها .. تمسك بالكتاب الحديدي وتبدأ بضرب قيدها ..

تركت جامعتي، وابتعدت عن حبيبي..

لم أعترض على ذلك، وأعلم أنّني وافقت بملء إرادتي ولكن..

ألم ترتكب في حياتك أخطاء.. كلنا نخطئ..

إنها تغيرات فيزيولوجية لا أكثر، أنت متعلم وتفهم..

كنت ما أزال طفلة صغيرة..

لا أفهم كيف تُعطيني الثقة ومن ثم تسرقها مني دون مبررات.

قرأت جميع الكتب الموجود هنا آلاف المرات ، لم أجد تفسيراً واحداً لما يحدث.

تتوقف عن ضرب السلسلة..تتمزق الكتب،و تفشل المحاولة مرةً أخرى..تشم رائحة عفنة كأنها رائحة جثة ..تنادي والدها..

أبي.. أين أنت.. كأنك رحلت..

أشم هذه الرائحة منذ وقت، ولكني خفت تصديقها.

أبي. .. لا تتركني وحيدة في عالم الغرف المغلقة ..أبي..

لا أريد الخروج منك، ولا أريد البقاء فيك..

ولكنك رحلت كما يفعل الزمن..يمضي دون عودة .

تتجه نحو الباب المغلق.. تشدها السلسلة بقوة لتعيدها إلى منتصف الغرفة.. تتعثر بالكتب الموجودة على الأرض..

تمسك ببعض الكتب وتبدأ بقراءة أسماء مؤلفيها..

الزمخشري.. الطبراني.. المتنبي.. البحتري..المعري.. الأفغاني.. محمد عبده.

تمسك بطريق الصدفة الكتاب الملفوف بالسلسلة الحديدية ..

ماذا فعلت بي يا أبي..

جميع إرثك على الأرض اصنع منه كتلة حديدية أخرى لأقطع هذه السلسلة...

ماذا صنعت..؟

لم تصنع سوى أربعة جدران وباب مغلق، ونافذة ضيقة..

لحظة صمت.. نسمع ضحكات أطفال تأتي من النافذة.. تتجه نحو النافذة.. تنظر لبرهة ثم تعود إلى منتصف خشبة المسرح ..موسيقى

انظر الآن عبر النافذة..

الأصوات تعلو وتعلو والأولاد يلعبون في الشارع..

ينظرون إلى الأعلى علّهم يلتقطون وجه فتاة يتخفى وراء خيوط غبار الشمس المنسلة عبر ثقوب النوافذ.

تضع السلسلة على مجموعة كتب.. تبدأ بضرب السلسلة.... تفشل المحاولة.. تمسك السلسلة وتتبع مكان ربطها لتصل إلى المقعد الخشبي.. تتحدث إلى والدها للمرة الأخيرة.

عشتَ طويلاً على مقعدك الخشبي ومتّ عليه.. تركتني للريح وللذاكرة..

ما الذي أستطيع فعله بعد هذه السنوات الطويلة ..؟

أخاف..أخاف الخروج من هذا المنزل لأني أعلم أنني لن أجد أحداً.

إلى أين أمضي ..؟

لن يكون هناك سوى القبور .

إن خرجتُ لن أجد سوى أسماءً مضت إلى شواهدها فوق القبور

وإن بقيتُ هنا سيضاف اسمٌ جديدٌ على تلك الشواهد..

بعد كل هذه السنوات التي مرت ..في الصمت ما أزال أسمع ضجيج نفسي ،و في الصوت أسمع ضجيج الآخر فيّ أيضاً..

تقلب المقعد الخشبي الهزاز.. تبدأ بضرب قدمه اليمنى مكان ربط

السلسلة.. نسمع صوت المطر.. ضحكات الأطفال .. تنكسر القدم اليمنى للمقعد الخشبي وتفك السلسلة.. ريح قوية تهب داخل الغرفة..يفتح الباب..لا تتجه نحوه،بل نحو النافذة ..تفتح النافذة.. نورٌ ساطعٌ يدخل الغرفة إضاءة عامة ..تخرج جميع الأغراض المخبأة من بين الرفوف..صورة هشام ..ثيابها الزاهية..

الياسمين أجمل عندما يتدلى عن أسوار المنازل إلى الطرقات..

الياسمين أجمل..عندما نلتقط أزهاره من الطرقات..

الياسمين أجمل..

ياه..ما أجمل الطفولة .

الجنسية فلسطيني..!

رضوان عبد الغني شبلي ـ سوريا

حركة 1

(تكشف الإضاءة عن رجل في 35-40 من العمر يرتدي بزة رسمية ، انيق للغاية ويبتسم للجمهور ، يقف في وسط المسرح يتقدم خطوتين ، ومن ثم تنهار عليه فلاشات الصور بكثافة دون أن يتحرك أو يغير من وضعيته أو ابتسامته)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني ! .

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 2

(تكشف الإضاءة عن ذات الرجل وبالملابس نفسها يقف في وسط المسرح وهو مبتسم ينظر للجمهور ، بعد قليل يسمع صوت قصف ودوي صواريخ وقنابل وصوت انهيار بيوت ثم يهدأ كل شيء، والرجل على ذات الهيئة يقف في ذات المكان مبتسما أنيقا)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني ! .

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 3

(الرجل على ذات الهيئة السابقة مبتسم للجمهور وأنيق ببزة رسمية أنيقة ، صوت نشرات أخبار متداخلة عربية وأجنبية ومن ثم ينتهي كل شيء والرجل على ذات الهيئة)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني ! .

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 4

(الرجل في وسط المسرح مبتسم أنيق ، صوت أناس من قطاع غزة واطفال يتذمرون ويشتكون ويستنكرون ويشتمون من ثم يهدأ كل شيء والرجل يقف مبتسما أنيقا للجمهور)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني ..!

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 5

(ممر ضوئي في الوسط يصل طرفي المسرح في البداية فارغ ثم يدخل ذات الرجل من أحد الأطراف يرتدي معطفا وقبعة ويحمل مظلة ويجتاز الممر حتى يصل للوسط ثم يقف ويستدير ناحية الجمهور ثم يبتسم ويتكلم)

الجنسية فلسطيني ..!

(يستمر الرجل ليخرج من الطرف الآخر)

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 6

(ممر ضوئي من عمق المسرح إلى المقدمة ، يظهر الرجل متقدما نحو مقدمة المسرح وهو يرتدي المعطف والقبعة ويحمل المظلة ووجهه للأرض وعندما يصل للمقدمة يرفع رأسه ويبتسم ويتكلم)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني .. !

(يستدير ويعود أدراجه)

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 7

(يضاء المسرح إضاءة ليلية صوت رعد وبرق وصوت أمطار تنهمر ، يدخل الرجل راكضا ويقف فجأة في وسط المسرح متقدما للجمهور وهو يحتمي تحت مظلته)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني .. !

(يعاود الخروج مسرعا والمطر ينهمر)

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 8

(في المطار ، صوت طائرات مدنية وصوت منبه المطار المعروف ، ثم

صوت فتاة تعلن ، الرجل في وسط المسرح وجهه للجمهور يحمل حقيبة ويرتدي معطفا وقبعة ويحمل مظلة)

صـــوت الفتـــاة : المسافرون على الخطوط الجوية الفلسطينية .. التوجه فورا.. الرجاء من المسافرين على الخطوط الجوية الفلسطينية .. التوجه فورا .. المسافرون على الخطوط الجوية الفلسطينية .. الرجاء التوجه فورا ... التوجه فورا... التوجه فورا ... التوجه فورا ..

(الرجل يستدير ويصبح مواجهاً الجمهور مبتسماً)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني .. !

(يخرج من المسرح وصوت الفتاة التي تعلن مستمر)

/ تتلاشى الإضاءة /

حركة 9

(الرجل في وسط المسرح ، يحمل مسدسا ويصوبه إلى رأسه مبتسماً ويطلق النار ، تسقط يده مع المسدس على جنبه ويبقى يقف على ذات الهيئة مبتسما وينظر للجمهور)

الرجـــل : الجنسية فلسطيني ..!

/ تتلاشى الإضاءة /

الفصل الأول

الاســم

(تكشف الإضاءة عن الرجل ذاته يقف في زاوية في مقدمة المسرح، ظهره للجمهور، ينظر باتجاه كرسي في وسط المسرح، يتقدم الرجل ناحية الكرسي ومن ثم يستدير ليواجه الجمهور)

الرجـــل : لا يمكنني أن أفسر لكم ما جرى .. لكن هي حالة من الضياع.. الضياع في كل شيء .. نحن المواطنون الفلسطينيون.. أصبحنا كأدوات النكرة .. لا نستخدم أل التعريف إلا في حالات إضطراريه ولا يحق لنا استخدامها .. لأننا نعيش على الخارطة .. حاولوا ان يجمعونا في مكان واحد وأن يدمجونا في اكثر من مجتمع لكن لم يفلحوا .. نحن نطالب بحق العودة **(يرقص رقصة إسبانية بكلتا قدميه وينهيها بالجلوس على الكرسي)** ، حق العودة ، عبارة باتت مألوفة منذ زمن... لكن العودة إلى أين **(إيماءة من وجهه وكتفيه تعبر عن شيء مجهول ثم فجأة)** آ .. إلى فلسطين **!** .. وطننا الذي طردنا منه منذ اكثر من ستين عاما .. لكن كيف طردنا من فلسطين .. هوه .. أصبحت القصة مطروقة للغاية..

واستخدمها الكثير من الكتاب والشعراء والمخرجين والمؤلفين ..أوف .. لكن .. ما الذي يتوجب علينا أن نفعله الآن .. الاسم **(ينتصب بدق الأرض بقدميه ويرقص على نغمات موسيقة صاخبة وينهي الرقص بقفزة يكون فيها على الكرسي)** المهاجرون.. هذا كان في البداية .. عندما طرد اليهود الفلسطينيين من الأراضي الفلسطينية أطلقوا عليهم «المهاجرون» .. واو.. المهاجرون **(يسرد)** عنوان رائع لفيلم سينمائي أو ربما رواية تاريخية .. تاريخية ! .. أبدا .. الأفضل أن يكون عنواناً لفيلم أكشن .. وتقوم هوليود بإنتاجه ويمثله ممثلون أمريكيون .. يتعلمون اللهجة الفلسطينية .. ويتخذون أسماءً فلسطينية .. وينشرون كاميراتهم على مدى الأرض الفلسطينية إن أرادوا تسميتها فلسطينية.. لكن ماذا سيكون وضع الخط الدرامي اليهودي في الفيلم .. هل سيذكر من هم المهاجرين .. **(يقفز من على الكرسي ويتقدم كرجل آلي إلى مقدمة المسرح)** لقد عرف التاريخ المعاصر .. نوعين من الهجرة .. الهجرة من الريف إلى المدينة .. ومن ثم من المدينة إلى الريف .. هذا كان درس الجغرافيا .. أما في التاريخ فهناك أنواع كثيرة من الهجرة .. هجرة اليهود من أوربا الشرقية إلى أرض

الميعاد .. وهجرة يهود أمريكا إلى فلسطين.. وهجرة اليهود العرب إلى البرازيل وكندا.. وهجرة الأوروبيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. والألمان إلى النمسا .. والفرنسيين إلى السويد.. وعدد لا يعد ولا يحصى من الهجرات .. أما نحن فليس في تاريخنا المعاصر إلا الهجرة من الريف إلى المدينة .. وحديثا تم العكس .. ولكن ثمة ثغرة .. ما وضع الفلسطينيين؟ .. ألم يهاجروا (**يقفز ويرقص على أنغام موسيقى السامبا لينتهي إلى المقدمة منتصبا**) لقد طردوا ! .. (**كالأوبرا**) برابرا .. إذا نحن أمام إسم جديد.. المطرودون.. من هم المطرودون ؟ .. الفلسطينيون ! .. منطقيا هذا صحيح.. لأنهم لم (**وقفة ، ثم فجأة**) لم يهاجروا.. لقد طردوا.. لكن من طردهم ؟ .. الجواب .. المهاجرون.. ترارالا.. المهاجرون قاموا بطرد المطرودين .. من أين من فلسطين.. من هم المهاجرون.. هم اليهود .. أوه .. ذكي! .. ومن هم المطرودون .. الفلسطينيون.. يا الله .. سرعة بديهة.. لكن أيضا نحن في تاريخنا لا يوجد إلا نوع واحد من الطرد.. وهو طرد آدم من الجنة بعد أن أكل التفاحة التي أصرت حواء على تذوقها.. إذن لا نذكر في التاريخ أنهم مطرودون .. إذن من نحن؟! .. أوه (**تراك موسيقي يعبر عن الخيبة**

يطوي الرجل جسده معبرا عن اليأس ، فجأة ينتصب تراك موسيقي يعبر عن فكرة تفجرت) اللاجئون .. **!**

yes .. (**إيماءة بيديه تعبر عن الإنتصار)** نعم .. لقد أطلق علينا في وقت من الأوقات .. والتصقت التسمية بنا نحن دون سوانا .. أوه .. لكن .. **! (تراك موسيقي يعبر عن الدهشة)** لم نكن لاجئين .. وإلا أين لجأنا .. طُردنا ومن ثم وجدنا أنفسنا مبعثرين .. نعم **(رقصة سريعة في مكانه)** مبعثرين **!**.. **(تصدح أغنية يقوم الرجل بتأديتها مع رقص خفيف وبشكل هزلي)**

حاصر حصارك لا مفر

اضرب عدوك لا مفر

واضرب عدوك بي ..

اضرب عدوك بي ..

سقطت ذراعي فالتقطها

واضرب عدوك بي ..

فأنا حر .. وحر وحر

حر .. وحر .. وحر

حر .. وحر .. وحر

(يقف في المقدمة ، وينزل قبعته على وجهه وينظر من

تحت القبعة وثم يلقي الكلمة التالية بشكل استفزازي وهزلي) مبعثرون .. يا للهول ! .. نحن الفلسطينيون مبعثورن ولدينا وطن .. مساحته 27000 كليومتر مربع.. مهاجرون ! . أوه لا لا .. لاجئون .. يالسخرية القدر ! .. معيب ما فعلناه يا جماعة .. أوه .. **(بهزل لاذع)** لاجئون!.. أووه **(يضرب على صدره كالنساء)** مهزومون ! .. يا ويلي **(بهزل)** مبعثرون ! **(ويؤدي الأغنية التالية بهزل وهويرقص رقصاً خفيفاً)**

حاصر حصارك لا مفر

اضرب عدوك لا مفر

واضرب عدوك بي ..

إضرب عدوك بي ..

سقطت ذراعي فالتقطها

واضرب عدوك بي ..

فأنا حر .. وحر وحر

حر .. وحر .. وحر

حر .. وحر .. وحر

(فجأة يقف بحزم وجدية ويواجه الجمهور) إذا لم نكن.. مهاجرين ولا مطرودين ولا لاجئين ولا مبعثرين .. ولا

منهزمين .. **(بصوت عال)** فمن نحن إذا ؟ .. **(تراك موسيقي يعبر عن الغضب وينتصب الرجل مكانه ، فترة صمت ويصدر الرجل ضحكة رفيعة للغاية تشبه ضحكة فتاة تخرج من حنجرتها)** إرهابيون **!** **(تصدح موسيقى صاخبة ويبدأ الرجل بالرقص بشكل جنوني ومن ثم ينتهي بالجلوس على الكرسي ويتكلم بشكل مندوب إحدى المحطات)** تسمية حديثة أطلقت علينا.. بعد أن قاومنا .. أوه .. ليست مناسبة **(تراك موسيقي بمعنى ليس ثانية)** إرهابيون .. لا تطلق على شعب قد شرِّد .. **(ينتصب فجاة ترك موسيقي يعبر عن ظهور فكرة)** مشردون **!** .. **(إيماءة من الرجل وكأنه يريد أن يقول غير صالحة ثم يهز رأسه بالنفي)** منكوبون .. آ.. نكبة **(تراك موسيقي يعبر عن فكرة)** لقد سمعت هذا المصطلح قبلا .. منكوبون .. اجل ... أطلق علينا منكوبون في زمن من الأزمان .. لكننا الآن **(وقفة)** ، ثم محاصرون .. محاصرون؟**!** **(يعود ويغني الأغنية السابقة بهزل وهو يرقص رقصاً خفيفاً..)**

حاصر حصارك لا مفر

اضرب عدوك لا مفر

واضرب عدوك بي ..

اضرب عدوك بي ..

سقطت ذراعي فالتقطها

واضرب عدوك بي ..

فأنا حر .. وحر وحر

حر .. وحر .. وحر

حر .. وحر .. وحر

(يقف في مقدمة المسرح وهو يواجه الجمهور مبتسما يضع قبعته . بهدوء وبرود أعصاب) إذا لم نكن مهاجرين .. وإذا لم نكن مطرودين .. وإذا لم نكن لاجئين .. وإذا لم نكن مبعثرين .. ووإذا لم نكن إرهابيين .. وإذا لم نكن منكوبين.. **(تزداد سرعة الحوار)** مهزومين .. مشردين.. هلاميين.. إنقلابيين .. مقاومين .. محافظين.. مغادرين.. مجاهدين .. معاندين .. مناصرين .. مغالبين.. مرابعين.. مثالثين .. مناصفين .. معلقين .. مطلقين .. شاملين .. ناقصين .. عدائيين .. راكضين .. نائمين .. صائحين.. صامتين.. صامدين .. وطنيين .. دوليين .. أمميين .. شيوعيين ..قوميين .. بعثيين .. اشتراكيين .. انتهازيين.. مناضلين .. سارقين .. مارقين .... معذبين .. مغامرين.. معلبين .. مقوقعين .. زحليين .. مشتريين.. رقيبين..

جالسين.. ناهضين .. آكلين .. شاربين .. ميتين .. عائشين.. سوريين .. أردنيين .. لبنانيين .. كويتيين .. عراقيين .. بحرينيين .. إماراتيين .. عمانيين.. يمنيين .. سعوديين .. مصريين ... سودانيين .. ليبيين .. تونسيين.. جزائريين .. صوماليين .. مغربيين.. موريتانيين .. من نكون ..من نكون !؟ **(صمت ثم بكل هدوء)** بكل بساطة.. نحن فلسطينيون ! .. **(يغني ويرقص بشكل هزلي وهو يعود أدراجه لعمق المسرح)**

حاصر حصارك لا مفر

اضرب عدوك لا مفر

وإضرب عدوك بي ..

اضرب عدوك بي ..

سقطت ذراعي فالتقطها

واضرب عدوك بي ..

فأنا حر .. وحر وحر

حر .. وحر .. وحر

حر .. وحر .. وحر

/ تتلاشى الإضاءة /

الفصل الثاني

مكان وتاريخ الولادة

(الرجل جالس على الكرسي ينظر إلى الجمهور صامتا ومن ثم ينتصب واقفا بشكل مفاجئ)

تاريخي .. آه تاريخي

إني نسيان .. نسيان

جرح بملامح إنسان

إني مرساة لا ترسو

جرح بملامح إنسان ... قسم المؤرخون التاريخ .. إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة ومعاصرة .. وشهد العالم حربين عالميتين .. وحروب فرعية .. وباردة وساخنة .. وفاترة **(تراك موسيقي كوميدي)** تاريخ أمة.. ميلاد مكان .. **(موسيقى سامبا راقصة ويتنهي بأن يقف الرجل على الكرسي)** حدثني أبو خالد الفلسطيني قائلا .. الأمة يا ولدي فقدت تاريخها منذ عصور .. وأدخلت في غياهب زمن انتهى ولم يعد يذكر.. من يذكر تاريخاً للفلسطينيين يا سادة .. بم .. بم .. صعقة..

بعد أن سميت هذه الأرض، أرض الميعاد .. فقدنا نحن تاريخنا.. والمعترف عليه هو ما تقره الأمم المتحدة .. هذا يعني أنه لا وجود للفلسطينيين أصلا .. شيء مرعب **(تراك موسيقى يدل على المفاجأة)** هذا يعني أن كل من عاش على أرض فلسطين ليس فلسطينيا .. وكل من ولد على أرض فلسطين ليس فلسطينيا .. أوه .. جرت العادة في الدول الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأمريكية أن يمنح الإنسان جنسية البلد الذي يولد فيه .. إلا اليهود منحوا جنسية البلد التي .. حرروها من الفلسطينيين وأدّعوا أنها دولة إسرائيل.. هم يقولون إنها .. إسرائيل **(تراك موسيقي يدل على السخرية)** دعونا .. نناقش الأمر مجددا .. كل الذين وفدوا إلى هذه الأرض منحوا جنسية الأرض وكل الذين تركوا الأرض نسبوا إلى المجهول .. هذا يعني .. أنا المولود هناك .. لا يمكن أن أنتسب إلى هناك .. والذي انتمى إلى تلك الأرض.. لا تعود أصولي إليها .. لأنها الآن مكان آخر وتحمل تاريخاً آخر .. فإذن المعادلة .. أنا لا تاريخ لي ولا مولد ولا مكان **(موسيقى رقص صاخبة يرقص الرجل ويدور حتى يصل إلى مقدمة المسرح)** معقولة .. أنا بلا تاريخ ولا مكان ولا ولادة .. إذا أنا .. **(بهزل)** لا شيء.. لا

وجود لي .. لا مكان أعيش فيه .. أنا وهم ... أنا سراب **(تراك موسيقي يدل على الختام يسقط على أرض المسرح وكأنه مات، ثم ينتصب واقفاً ، ما، تراك موسيقى يدل على ذلك)** لكنني.. موجود .. وأنتسب إلى مكان .. ولي تاريخ .. وأحمل إشعارا بذلك .. الهوية **! (تصدح موسيقى ويرقص وهو يؤدي المقطع الغنائي التالي)**

الآن الآن الآن

الآن لإني فلسطيني

يحق لي اسم أبي

ومن أبي ومن أبي

رصاص بندقية

ومشعل الحرية

للأمة الأبية

يا يا يا حبيبتي.

(يقف وينظر للجمهور) الهوية .. إشعار بأنني موجود.. وغير ذلك .. لا **(تراك موسيقي يدل على الحدث)** ولكن.. ماذا كانت هذه الهوية ؟ .. إنها تصريح دخول.. كه كه كه.. إلى أين .. إلى فلسطين .. أوه .. لا لا .. فلسطيني .. بحاجة إلى تصريح دخول إلى فلسطين ..

ياللهول .. أيتها السماوات.. بم بم .. المكان .. **(تراك موسيقى راقص)** في الجغرافيا الجديدة .. يرسم المكان بخطوط .. أما في الجغرافيا القديمة .. فيرسم المكان بجبال وبحار وأودية وصحارى.. تخيل فلسطين بحدود طبيعية .. كم تبلغ مساحتها .. وتخيلها بحدودها الحالية **(يهبط بنصف جسده العلوي وتراك موسيقي يدل على اليأس وينتصب ويغني المقطع السابق بهزل ويتراجع حتى يجلس على كرسيه)**

الآن الآن الآن

الآن لإني فلسطيني

يحق لي اسم أبي

ومن أبي ومن أبي

رصاص بندقية

ومشعل الحرية

للأمة الأبية

يا يا يا حبيبتي.

إذن وبإختصار .. لا مكان .. لا وطن .. لا تاريخ .. وهم.. هم قرروا أنه وهم .. هكذا فجأة وهم .. فلسطين والفلسطينيون .. وهم .. بدعة أوجدها

العرب.. ليخلقوا حروبا مع إسرائيل .. والدليل أن بعض العرب اعترفوا بتلك الدولة التي هي في الأساس مبنية على وهم.. وبالتالي صارت إسرائيل حقيقة .. وفلسطين وهم **(بهزل)** عجيب.. حسنا .. بالتالي كل فلسطيني وهم .. يعني .. أنا وهم .. المسجد الأقصى وهم .. مسجد القبة الصفراء وهم .. كنيسة القيامة وهم.. الإسراء والمعراج وهم .. ولادة المسيح وهم.. خالد بن الوليد واليرموك وهم . معركة اجنادين وهم .. صلاح الدين وهم .. وهم .. وهم .. لأنها جميعا كانت على أرض فلسطين .. وهم يقولون إن فلسطين وهم.. إذن.. كانوا يضحكون على ذقوننا .. كانوا يغشوننا .. إذن.. لا وجود لنا .. ولا مكان ولا تاريخ .. إذن أين أولادنا .. وأين عشنا .. ومن اجدادنا .. من إذن قرر أننا وهم .. لا يوجد شيء من لا شيء .. نحن هنا.. أنا فلسطيني أنا موجود، إذن **(ينتصب كجندي)** سجلوا .. في أجنداتكم .. عام 33 ق. م ولد المسيح في بيت لحم في فلسطين ... حادثة الإسراء والمعراج في القدس في فلسطين ... عام 634 م معركة اجنادين بين المسلمين والبيزنطيين في أجنادين في فلسطين .. 2 آب 636 م معركة اليرموك بين المسلمين والروم ووقوع فلسطين

تحت الحكم الاسلامي وفتح بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين ... 3 أيلول 1260 م معركة عين جالوت بين المسلمين والتتار في عين جالوت في فلسطين .. 15 تموز 1099 احتل الصليبيون بيت المقدس وقتلوا بالمسجد الاقصى ما يزيد عن سبعين الفا من المسلمين في فلسطين.

4 تموز 1187 م معركة حطين بين المسلمين والصليبيين قرب قرية المجاودة، بين الناصرة وطبرية في فلسطين .. 7 شباط 1799 بدأت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لاحتلال فلسطين .. 20 نيسان 1799 وجه نابليون بونابرت نداء دعا فيه اليهود في آسيا وأفريقيا للالتحاق بجيشه من اجل دخول القدس في فلسطين ضمن الحملة الفرنسية .. عام 1900م السلطان عبد الحميد الثاني أصدر أمر ينص على عدم السماح لليهود بالإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر... 1 تموز1920م بدأ الحكم المدني البريطاني في فلسطين بتعيين هربرت صموئيل كأول مندوب سامي في فلسطين ... 6 تموز1921 م عصبة الأمم تعلن مشروع الإنتداب البريطاني على فلسطين .. 9 نيسان 1948 م مذبحة دير ياسين على يد قوات الإرهابي مناحيم بيغن زعيم عصابة

الأرغون الإرهابية والتي راح ضحيتها 250 فلسطينيا.. 21 آب 1969م قام يهودي استرالي باحراق المسجد الأقصى.. 16أيلول 1979م الحكومة الصهيونية ترفع الحظر عن شراء اليهود أراضٍ في الضفة الغربية ... 6 كانون الثاني 1938 م قوات الاحتلال البريطانية ترتكب مجزرة في قرية عتيل بحق النساء والأطفال وتنتهك حرمة المساجد وتمزق المصاحف .. 25 شباط 1994 م وقوع مجزرة الحرم الابراهيمي الشريف في الخليل في فلسطين ، ضد المصلين أثناء سجودهم في صلاة الفجر يوم الجمعة من شهر رمضان على يد المستوطن الإرهابي باروخ غولد شتاين .. ببساطة لسنا وهما .. لسنا وهما.. نحن حقيقية .. وإسرائيل المختلقة هي الوهم **(يعاود الرقص)**

الآن الآن الآن

الآن لإني فلسطيني

يحق لي اسم أبي

ومن أبي ومن أبي

رصاص بندقية

ومشعل الحرية

للأمة الأبية

يا يا يا حبيبتي.

(تتلاشى الإضاءة)

الفصل الأخير

العلامات المميزة

(الرجل على كرسيه في مقدمة المسرح ، منتصب القامة مشدود الظهر ينظر للجمهور ويتكلم)

الرجـــل : سلموني الهوية .. باعتبار أني فلسطيني ولي تاريخ مجيد كما سلف .. نعم .. لأول مرة فلسطيني يستلم الهوية **(تراك موسيقي يدل على الحادثة)** وعندما دققت فيها جيدا.. ماذا وجدت ؟! .. لم يلفت نظري إلا شيء واحد.. ألا وهو.. العلامات المميزة .. ماذا كانت ؟ .. **(ينهض واقفا أمام الكرسي ويحدق بالجمهور مبتسماً)** العلامات المميزة.. كافر! **(تراك موسيقي يدل على الحدث)** لِمَ أنا كافر .. لهذا قصة طويلة.. أنا أكتب الشعر .. أوَه **(تراك موسيقي يدل على الحدث)** في إحدى الأمسيات الشعرية **(وهنا يتحرك بحرية على الخشبة)** دعيت لإلقاء قصيدة.. وكنت سكرانا.. وكان الحضور في المسرح يصفق لي بحرارة .. يعلمون أني عندما ألقي قصيدة فسوف انهال على الجميع بلا رحمة ولن يتمكن مني الجميع .. وعندما ألقي هذه القصيدة ... فإما مصيري

السجن .. أو العزلة.. وهذه أيضا من العلامات المميزة لكل فلسطيني .. نعم كنت سكرانا .. هذه الحالة هي أكثر حالات الإلهام لدي وتمكنني من نفسي بشكل لا مبالغ فيه.. أنا عكس البشر.. امتلك إرادتي عندما أكون سكرانا .. وهذه أيضا إحدى العلامات المميزة .. كما ويمكن القول إن حالة السكر لدى كل فلسطيني .. هي حالة مقدسة .. لأنه يتملكك أن يشْتم من إدعى الوطنية ومن قال أنا وطني، والوطنية منه براء بم بم .. **(تراك مو سيقي يناسب الحادثة)**.. وحالة السكر هي أعلى حالات الإبداع لدي بحيث تمكنني من امتلاك النشوة الشعرية.. وتمكنني من إفراغ ما في رأسي دفعة واحدة دون خوف.. وقفت على المنبر **(يمثل ما يقوله ببراعة)** أمسكت بالمايكرفون وشرعت في إلقاء قصيدتي والتي سوف أختم فيها عرضي هذا .. إسمعوني كيف ألقيت قصيدة لا مثيل لها.. وكيف صفق لي الجمهور تصفيقا حارا.. بالمناسبة الجمهور كان ثملا أيضا... يترنح في المقاعد.. ومنهم من كان يشْتم وهذا كان في المقاعد الأخيرة .. ومنهم من كان غارقا في أمور حميمية ... باختصار كان جمهورا محترما... أجل .. تلك أيضا من العلامات المميزة للجمهور.. لقد أنكروا كل علاماتي المميزة وفي النهاية

دوّنوا في جنسيتي وفي حقل العلامات المميزة أنني كافر.. إسمعوا يا سادة ما سأقول منفجرا ولا تحرجوا مما سأقوله لأنه موجود بينكم وفيكم .. اسمعوا دون أن تفكروا .. لأنكم مجرد أن سمعتم استعملت عقولكم .. اسمعوني .. وفقط .. دون أن تشعروا أن هذا الشخص الذي يحادثكم هو شخص ذوأهمية .. شخص ترتاحون له ولا ترتاحون.. عليكم فقط الاستماع والإنصات لقصيدة عصماء .. سوف أعلقها في القدس لتكون أولى المعلقات القدسية العشر .. اسمعوا جدارية اعتبروها من علاماتي المميزة .. عليكم أن تسمعوا.. وهل لنا علامة اخرى غير السمع .. علامة الفعل ألغيت منذ سنين (ترك موسيقي يدل على الحدث) **(كأن هناك ميكرفون أمامه)** إحم.. واحد .. إثنان .. يعمل ... **(يشد كتفيه ، ينظر للجمهور بعيينين مفتوحتين وصدر ممتلئ ومن ثم يتداعى كما يتداعى البالون الممتلئ بالهواء ومن ثم يشد صدره من جديد ويفتح عينيه وينتصب ويبدأ بإلتقاء القصيدة)**

في الوطنِ العربيِّ ترى أنهارَ النّفطِ تسيلْ
لا تسألْ عن سعرِ البرميلْ
والدّمُ أيضاً

مثلَ الأنهارِ تراهُ يسيلْ
لا تسألْ عن سعرِ البرميلْ
والدّمعُ
وأشياءٌ أخرى
من كلِّ مكانٍ في الوطنِ العربيِّ تسيلْ

لا تسألْ عن سعرِ البرميلْ
فلكلِّ زمانٍ تجّارٌ
والسّوقُ لها لغةٌ وأصولْ

النّملةُ قطعتْ رأسَ الفيلْ
والبّقةُ شربتْ نهرَ النيل
والجّبلُ تمخّضَ.. أنجبَ فأراً
والفأرُ توّحشَّ يوماً.. وافترسَ الغولْ
والذّئبُ يغنّي يا ليلي..يا عيني
والحرباءُ تقولْ بلباقةِ سيّدةٍ تتسوّقُ في باريسَ:
«تري جانتيلْ» معقولٌ..؟
ما تعريفُ المُمكنِ والمُتصوّرِ والمعقولْ؟

يا قارىء كلماتي بالعرض
وقارىء كلماتي بالطّولْ
لا تبحثْ عن شيءٍ عندي يدعى المعقولْ
إنّي معترفٌ بجنونِ كلامي
بالجّملةِ والتّفصيلْ
ولهذا لا تُتعبْ عقلكَ أبداً
بالجّرحِ وبالتّعديلْ
وبنقدِ المتنِ وبالتّأويلْ
خذها منّي تلكَ الكلماتُ
وصدّقها من دونِ دليلْ
بعثرها في عقلكَ..
لا بأسَ إن اختلطَ الفاعلُ بالفعلِ أو المفعولْ

الفاعلُ يفعلُ
والمفعولُ به يبني ما فعلَ الفاعلُ للمجهولْ
هذا تفكيرٌ عربيٌ عمليٌ شرعيٌ مقبولْ
في زمنٍ فيهِ حوادثنا كمذابحنا
ومآتمنا

أفعالٌ تبنى للمجهولْ

خُذ مثلاً
ضاعتْ منّا القدسُ
وقامتْ دولةُ إسرائيلْ
من المسؤول؟
فعلٌ مبنيٌّ للمجهولْ
خذ مثلاً دبّاباتٌ ستٌ في بغدادَ
ونشراتُ الأخبارِ تقولْ:
سقطتْ بغدادُ

من المسؤولْ؟
فعلٌ مبنيٌ للمجهولْ

خُذ مثلاً في الوطنِ العربيِّ
ترى أنهارَ النّفطِ تسيلْ

لا تسألْ عن سعرِ البرميلْ

والدّمُ أيضاً
مثلَ الأنهارِ تراهُ يسيلْ
لا تسألْ عن سعرِ البرميلْ
والدّمعُ
وأشياءٌ أخرى
من كلِّ مكانٍ في الوطنِ العربيِّ تسيلْ

لا تسألْ عن سعرِ البرميلْ
فلكلِّ زمانٍ تجّارٌ
والسّوقُ لها لغةٌ وأصولْ
أمّا نحنُ البُسطاءُ
فأفضلَ ما نفعل ان نفرحَ حينَ يفيضُ النّيلْ
أن نحزنَ حين يغيضُ النّيلْ
أن نرقصَ في الأفراحِ
ونبكي في الأتراحِ
ونؤمنَ أنَّ الأرضَ تدورُ بلا تعليلْ
والموتُ هنا مثل الفوضى
والرّيحِ يجيءُ بلا سببٍ

وبلا تعليلْ
والحربُ هنا حدثٌ ميتافيزيقي
فاعلهُ إنسانٌ مجهولْ
وضحيّتهُ أيضاً مجهولْ

هذا تفكيرٌ عربيٌ عمليٌ شرعيٌ مقبولْ
في زمنٍ فيهِ حوادثنا كمذابحنا
ومآتمنا
أفعالٌ تبنى للمجهولْ
فعلٌ مبنيٌّ للمجهولْ
عفويٌ مثل شروقِ الشّمسِ
بديهيٌ مثل التّنزيلْ

أمرٌ مفروضٌ حتميٌ
وقضاءٌ مثل قضاءِ اللهِب
لا تبديلْ
فعلٌ مبنيٌ للمجهولْ
وعلينا أن نصبرَ دوماً

فالصّبرُ جميلْ

ما أسخفها تلكَ الجّملةُ .. «الصّبرُ جميلْ»
ولدتْ جملاً أخرى تُشبهها
خُذ مثلا الخوف جميلْ
الذّلُّ جميلْ
الموتُ جميلْ
الهربُ من الأقدارِ جميلْ
وجميلٌ أن يُقتلَ منّا في غزّة يوماً مائةُ قتيلْ
وجميلٌ أن ننسى في اليومِ التّالي
ـ فالنّسيانُ جميلْ وجميلٌ ـ
أن تأتينا أمريكا بجيوش وأساطيلْ
وجميلٌ أنْ تحترقَ الأرضُ
فلا يبقى زرعٌ ونخيلْ
وجميلٌ أنْ تختنقَ الخيلُ
فلا يبقى نزقٌ وصهيلْ
وجميلٌ أنْ تتهاوى كلُّ عواصمنا كي تبقى دولةُ إسرائيلْ
ياربِّ. .كفرتُ بإسرائيلْ

وكفرتُ بكلِ حوادثنا المبنيّةِ دوماً للمجهولْ

ياربِّ
كفرتُ بإسرائيلْ
هي وهمٌ
كالنّملةِ والبّقةِ
نحنُ جعلناها كالفيلْ
وتركناها تتدحرجُ فوقَ خريطتنا يوماً كالفيلْ
وتدوسُ علينا مثل الفيلْ
وتدكُّ قُرانا مثل الفيلْ
يارِبِّ
كفرتُ بإسرائيلْ
هذا الوهمُ الملتفُّ على الأعناقِ
إذا قررنا يوماً
سوفَ يزولْ

يارِبِّ كفرتُ بإسرائيلْ

الموتُ الموتُ..لإسرائيلْ
الموتُ الموتُ..لإسرائيلْ
الموتُ الموتُ..لإسرائيلْ*.

(يسقط الرجل في وسط المسرح ، رافعا ساعد يده واضعا علامة النصر بكلتا إصبعيه)

(تتلاشى الإضاءة)

ختام

* القصيدة النهائية من كلمات الشاعر العربي مظفر النواب

الشحرور والرجل

طلال نصر الدين ـ سوريا

(غرفة كبيرة من تلك التي ترتجل على سطوح البنايات لتناسب رجلاً وحيداً.

في نهاية الحائط الأيمن للغرفة فتحة المدخل، حيث يختفي بعدها الباب الرئيسي، وأمام الفتحة مشجب أرضي خشبي عُلِّقت عليه قبعة إيطالية رماديّة، وعكازة خشبية، وعباءة مغاربية.

وسط الغرفة يغفو الرجل على كرسيّه الخيزراني الهزاز متلفعاً ببطانية سوداء، بالرغم من صوت إحدى مغنيّات المقاهي الليلية، وهو يصل متقطعاً.

في العمق صوفا قديمة تصبح سريراً عند الحاجة، وعلى الحائط اليساري عدة رفوف وقد وضعت عليها دمى مختلفة الأشكال والوجوه، وقد صُنعت يدوياً وبإسلوب بدائي ومتقن.

في الزاوية اليسارية طاولة خشبيّة مستطيلة وعليها عدة دمى منجزة وأخرى قيد الإنجاز، وعلب الغراء والحشوات القطنية للدمى، وأقمشة ملوّنة رخيصة، وعلب الخرز، وإبر ومخارز، وقطع الجرائد المقصوصة من أجل صناعة الدمى.

على يسار الحائط العمقي علقت أربع قبعات: طربوش تركي وفوقه قبعة نابليونية، فقبعة عسكرية معاصرة، فأخرى أوروبية، وإلى الأسفل كوفيّة وعقال.

وسط الحائط العمقي صورة بالأسود والأبيض لرجلٍ قاسي الملامح، وجانبها صورة لسيدة محجّبة، وتحت الصورتين صورٌ صغيرة لأطفال من الجنسين.

تحت الصور طاولة صغيرة عليها غراموفون قديم، وإلى جانبه عدد من الأسطوانات المحفوظة، وأعلى الحائط يمين الصور صورة متوسطة الحجم لغيفارا، ثم النافذة الوحيدة للغرفة وفوقها صورة لشاب يحمل بندقية كلاشينكوف ويرتدي بزّة عسكرية مموّهة، ويمين النافذة على الأرض عود قديم.

الأضواء تتسرب من النافذة على كتلة الرجل بأوائل الفجر المعتم في مدينة تبدأ بالنوم فجراً.

تصل متقطعةً أصواتُ أغنية المقهى مع أصوات التصفيق والتصفير)

الرجـــل : **(يفيق مذعوراً)** ياإلهي.. ذات الصور ثانية **(يقوم بسرعة نحو الطاولة ويبحث بسرعة في أدراجها الثلاثة ثم يتذكر)** آه.. صحيح، لم نشترِ الدواء أمس **(صمت)** أمس كان يوماً منحوساً، لكن ما علينا، سنصمد. سنصمد حتى الصباح يا صاحبي وسنشتري ذلك

الدواء الملعون، سنتدبر ثمنه. لا أعرف كيف، لكني سأتدبّره (**يمضي نحو النافذة**) أين أنت حتى الآن!؟ (**صمت**) إنها الرابعة والربع!! هل يجب أن أوقظك كل يوم!!؟ لقد شخت أنت الآخر (**صمت**) ما علينا. مازلت أنتظرك (**يخاطب صورة المرأة**) صباح الخير يا أمي. (**ينظر للنافذة**) ليرحمك الله يا ست الكلّ، ليرحمنا الله جميعاً (**يرد على سؤال افتراضي**) أنا؟ أنا بخير والحمد لله (**يستدرك**) لا يا أمي لست بخير، أنا متعب، رأسي تؤلمني وتلك الصور الملعونة تعاودني ثانية، لكن لا بأس، مازلت حياً (**صمت**) أنا حي فحسب، أعيش. كيف؟ لا أعرف لكني أعيش. لماذا؟ لكي أرى كل هذا الهناء (**يعود صوت أغاني المقهى قوياً فيصيح**) وأسمع كل هذا.

صــوت : (**من الأسفل**) يا جار نريد أن ننام

الرجـــل : نم. هل أهدهد لك كي تنام؟ كل يوم تسمع هذا البرنامج الرائع ولا تتفوّه بكلمة واحدة، هل صار صوتي يزعجك؟ نفس البرنامج كل يوم (**ساخراً وبسخط**) خذ الدبلة وطلّقني.. من عذابك أعتقني.. الشاب الأبيض غازلني، والأسمر ما غازلني ويالله (**يتمثل مجريات ملاهي الليل**) تحية لشباب الخليج (**يقلّد الدربكة**)

ترررم، وتحية لأبي مصلح من السعودية (**يقلّد الدربكة بإيقاع آخر**) تاراتاك، تحية لأبي منصور من قطر دمدم دمدملح، ولعبد الله السعيد من ليبيا ترتاتام، وتحية للسوريين وشيخ الشباب عبوّدي ترتاتام، وتحية لسعود وأحلى شباب الأردن، وللسودان ومصر والجزائر، تحية لكل العرب بكل مكان، وليدم الله أيام الحب والفرح والفرفشة (**ساخطاً**) تحية للملوك ورؤساء العرب، وتحية للعرب بكل مقاهي البلد، وبكل إذاعات البلد وجرائد البلد، وياالله (**يمسك رزمة من أوراق الجرائد وينثرها كالنقود**) ورشرش لعيون وخصر وصوت جميلة (**يرمي النقود الوهمية ثانية**) وتحية لأميرة وعيون أميرة.

الرجـــل : (مقلّداً **خلاعة بنات الليل**) وياالله (يرقص مقلداً الراقصات) دمدمدليلح دمديليلحلح.

صـــوت : (**من الأسفل**) يا جار ألا يكفينا برنامج هؤلاء الأرذال**!**؟ ماذا حدث لك اليوم يا أخي**!!**؟

الرجـــل : (**يهدأ**) آسف يا جار. آسف (**صمت للحظات**) ماذا حدث لي اليوم**!**؟ يا إلهي أنا متعب. متعب (**يتحسس صدغه التي تؤلمه ثم يحادث الدمى**) أمس نزلت لأبيع الدمى كالعادة، قلت أمّر إلى عند أبي علي نفطر سوية كالعادة أيضاً، وأغني له قليلاً قبل جولتي، لهذا أخذت

العود معي (**يتمثل لحظة مشاهدته لصاحبه**) صباح الخير يا صاحبي، ردّ عليّ لا أعرف كيف. عادةً كان وجهه يبش ويفرح عندما يراني، لكنه هذه المرة كان معتكر المزاج (**يقلّد أبا علي**) أهلاً قال لي بلا نفس (**يتمثل نفسه**) ما بك يا أبا علي؟ فانفجر بي فجأة: يا أخي حلّ عن سمائي، لست أبا علي ولست صديقك، أنا أبو سمير الحمصاني، وأنت لست ذلك البطل أو المناضل الذي اخترعه عقلك المجنون (**يتمثل نفسه وهو يردّ على صاحبه**) ولو يا أبا علي، أنا وديع حدّاد، أنا أبو جورج هل نسيتني**!**؟ وأنت أبو علي مصطفى صديق عمري**!!** صحبة عمر يا أبا علي ما بك؟ أنسيت أيام الفدائيين والمقاومة والعمل السرّي (**يتمثّل ردّ صاحبه أمس**) أية مقاومة وأي فدائيين وأي هراء؟ من يوم يومي أنا أبو سمير الحمصاني، وأنت محمد المجنون، لكنا كنا نجاملك، نضحك عليك هل فهمت**!**؟ (**يبهت متمثلاً تلك اللحظة**) أنا مجنون**!!** سامحك الله يا أبا علي (**تغرورق عيناه**) ذبحتني يا صاحبي ذبحتني (**يتمثّل ردّ صاحبه أمس**) يا أخي حلّ عني، والله قلبي ممرور من كل شيء، تكفيني دوريات التموين والصحة والشرطة، هذا اليوم لست رائقاً لك، اعتقني لأجل الله. قال لي (**صمت**) يا حيف. يا حيف،

يا حيف الحيف، هززت رأسي ومضيت **(يبكي)** أنكرني كما أنكر بطرسٌ المسيح، فرحت لكنه ندم فصاح: تعال سامَحَني الله، أنت درويش على باب الله، ولابدّ أنك جائع تعال، وصنع لي صحن فول ورماه على الطاولة ثم: تعال وكُلْ قال **(يبكي)** يتحسّن علي**!!** هه..**!! (يصيح متمثلاً ما حدث)** ولك أنا وديع حدّاد أنا، اسمي فقط كان يرعب كل أوغاد العالم، كل حكام الدنيا، تنكرني يا مصطفى ياحيف الحيف. خلّ فولك لجوعك، ومضيت **(يهدأ ويتذكر)** ضجة. زمامير سيارات. أناس يرتطمون بي، وأنا دائخ جائع ورأسي تؤلمني، أترنّح وأسير وأرتطم بالناس أنا الآخر **(متمثلاً منظراً من يوم أمس)** انظر أمامك هل أنت أعمى؟ أتماسك وأسير محاولاً بيع شيء، أي شيء **(يقلّد نفسه يوم أمس)** ألعاب، مسابح ومحافظ وشحاطات خرز، سندريلا، ليلى والذئب، عنترة، أبو زيد الهلالي بخمسين ليرة فقط، لا أحد يراني أو يرى بضاعتي، ذرعت شوارع المدينة كلها يا شباب، نصف نهار دون أن يراني أحد، ولا واحد، أخيراً ضجرت وسرت، نفس أغاني المقهى تتردّد في كل مكان، من الإذاعة والسيارات ومحلّات التسجيل العادية، كأن البلد كلها مقهى ليلي**!!** بلد سياحي**!! (ينظر للنافذة**

ويصيح) تأخرت اليوم، ما قصتك؟ **(يعود لمخاطبة لعبه)** المهمّ يا شباب تابعت سيري عليّ أبيع شيئاً، رأسي تضغط علي وكذلك تلك الصور، ومعدتي أيضاً، أدلّل على بضاعتي ثانيةً متمنياً الحصول على خمسين ليرة فقط لا أحد يراني، لا أحد. الناس سيل من المسرنمين، آلاف البشر وأنا وحيد، في الواقع كلنا وحيدون، أتمنى أن يستوقفني أحدٌ ما: رجل. امرأة. طفل. شاب أي شخص ليسألني عن شيء ما، أي شيء. من أنت؟ ما رأيك أن نفطر سوية؟ سأدعوك إلى فنجان قهوة. لكن لا. وجوه مكدودة تتلاشى محملة بهواجسها ومخاوفها من القادم **(صمت)** تذكرت أني رأيت ـ في بلد ما أو فيلم ما ـ موسيقيين يعزفون في الشوارع أو الحدائق، والناس يدفعون لهم القليل من المال، قلت أفعل ذلك: أعزف الموسيقى، ثم أمدّ قبعتي وربما يدفعون، فأشتري دوائي على الأقلّ، وإن كنت محظوظاً ربما أشتري صحن فول أو كوب قهوة مثلاً. **(يتذكر)** المهمّ عزفت.. عزفت أجمل ما لدي **(يتناول عوده ويعزف مقطوعة بإسلوب منير بشير)** لم يتجمهر الناس حولي، كانوا ينظرون إلي باستغراب ويطلقون عبارات مثل ما هذا المجنون؟ صار المهابيل يتهبّلون ولا أحد يردهم **(بسخرية)** معهم حق

على أية حال تعلمت درساً: الفرق بيننا وبين الأوروبيين ليس حضارياً أو ثقافياً أو معرفياً، الفارق ببساطة أن الأوروبيين يدفعون القليل لعازفي الحدائق البائسين كي يشتروا دواءهم، والناس عندنا لا يدفعون. لماذا؟ لأنهم فقدوا قلوبهم منذ زمن بعيد (**صمت**) أخيراً يا شباب سئمت وأسلمت نفسي للاشيء (**يبتسم**) الطيور تتقافز على الأشجار، تتغازل فوق الأغصان، وتحلق فوق البشر والبنايات والشوارع والسيارات وتسلح كيفما اتفق غير آبهة بنا نحن الحمقى، وأنا أتفرج وأقول يا ألله ليتني كنت ذلك الغراب مثلاً أو ذلك الحسون (**ينطلق صوت شحرور لا نعرف فعلياً إن كان واقعياً أم لا**) يا إلهي أخيراً استيقظت**!**؟ أقلقتني عليك (**الشحرور يغرّد**) ماذا؟ (**الشحرور يغرّد بحزن**) اصطادوا شحرورتك؟ كيف؟ (**تغريدة طويلة للشحرور**) يا إلهي لم يكن ينبغي أن تغفل عن حراستها (**تغريدة ساخطة**) لأننا نحن البشر مجانين، لا بل أوغاد، كان يجب أن تنتبه أنت فأنت الذكر (**تغريدة قصيرة يائسة**) نعم. نعم. آسف. العتاب لا يفيد شيئاً الآن (**تغريدة تساؤلية**) لا أعرف لا أظن أنك تستطيع أن تفعل شيئاً الآن (**تغريدة كسابقتها**) لا بدّ أنهم وضعوها في قفص ؟ (**تغريدة**

تقريريّة) إياك. إياك أن تفعل **(تغريدة تساؤلية)** أنت لا تعرف البشر، إنهم يضعونها أمامك كي تقترب منها أكثر فيصطادوك أنت الآخر، هل فهمت؟ **(تغريدة تساؤلية)** كي يسجنوك أيها الأحمق ألا تفهم**!!**؟ **(تغريدة كالسابقة)** كيف لماذا**!!**؟ كي تغني لهم أيها الأحمق كي يزينوا شرفاتهم بك**!!** ولا تسألني لماذا، ربما كي يشعروا أنهم أقوى هل فهمت؟ **(تغريدة استنكارية)** وهل تظنني أفهم أنا الآخر؟ إذا كنت أنا الإنسان المفكر لا أفهم لماذا نحن هكذا، فكيف ستفهم أنت**!**؟ **(تصويتة حزينة للشحرور)** آه يا صديقي. لا تبكِ أرجوك **(التغريدة الشجية تتردد)** يا أخي صحيح أنها في قفص، لكن إن كان يعزيك الأمر، فهم يقدّمون لها أفضل الطعام، دون أن يحققوا معها أو يعذبوها كي تعترف **(تغريدة تساؤلية)** تعترف بماذا**!!**؟ تعترف بكل شيء عني وعنك فيقودوننا إلى السجن **(التغريدة التساؤلية)** آه صحيح، في عالمكم لا يوجد سجون كيف سأشرح لك الأمر؟ **(الرجل يفكر ويشرح)** في عالمنا توجد السجون، والسجون يا صاحبي أقفاص لكن كبيرة، لأنها مخصصة لنا نحن البشر **(تغريدة تساؤلية)** أوهوه**!!** إنها أسوأ بألف مرة من أقفاصكم **(تغريدة أخرى)** صحيح أنها كبيرة، لكنهم

يزجّوننا بها بأعداد هائلة، تخيّل الوضع: غرفة كبيرة أو قبو، ممر جعلوه قبواً فسدّوا كل جوانبه وغطوه بسقف ما، لا نوافذ لا هواء، لا شيء سوى باب حديدي ضخم كي يُدْخِلونا منه **(يتذكر مشهداً يعرفه)** مائة وعشرون شخصاً في ممر طوله عشرة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار، مائة وعشرون شخصاً. هل تفهم؟ **(تصويتة موافقة)** وهناك لا تستطيع الجلوس أو الحركة كل ما تستطيعه هو الوقوف فحسب، أجساد روائح عرق وأفواه وأقدام لم تغسل منذ شهور، وروائح أقدام أولئك الذين أتو للتوّ من التحقيق ـ ولا تسألني ما هو التحقيق سأشرحه لك لاحقاً ـ المهمّ عندما يأتي الليل ويجب أن تنام غصباً عنك وعن لحية الذين خلفوك، يدخل الحراس **(يقلد أحد الحراس الساكنين في ذاكرته)** ناموا ولك أولاد الكلب **(يعود للروي)** نرتمي كيفما كان ولأن المكان ضيق، ضيق جداً، يصيحون: سيّفْ سيّفْ ولك ابن الزنا **(يتذكر ويشرح)** سيّف تعني أن تنام على جنبك. لا على ظهرك أو بطنك كي لا تأخذ مساحة كبيرة **(يصّف مجموعة من اللعب ويحشرها على أجنابها ويقلّد الحراس الذين يعرفهم)** سيّفْ أنت يا جحش، سيّف يا حمار. يا بغل يا كلب، سيّفْ قلت لك يا بن الـ..

صـــوت : (**من الأسفل**) يا جار كرمى لله، دعنا ننام قليلاً

الرجـــل : (**يصيح بالجار**) سيّف ونم يا جحش، سيّف (**يعود لمخاطبة شحروره**) فنسيّف وننام ممددين كالعصي محشورين ببعضنا البعض، وفي الطرف المقابل يتمدد السجناء الآخرون مثلنا، وبما أن عرض المكان ثلاثة أمتار فقط، تصبح أقدامنا فوق أقدام المسيّفين مثلنا في الطرف المقابل، أو أقدامهم فوق أقدامنا، وبالرغم من هذا، المكان لا يتسّع، لهذا يكون على البقية أن ترتمي كيفما كان فوق أقدام أو أجساد الآخرين (**يعصر رأسه بيديه الاثنتين**) وفي الصباح ثمة سجين لا يقوم، يأتي الحراس يضربونه، يركلونه، فلا يفيق (**الشحرور يصوّت متسائلاً**) لأنه ميت يا صاحبي**!!** لقد مات بيننا دون أن يحسّ به أحد (**يبكي**) يجرّونه إلى مكان ما، وأولئك الذين ينتظرونه أهلاً أو زوجة أو أطفالاً سينتظرون غائبهم ولن يرجع أبداً، وربما يشفق عليهم أحد ما بعد زمن طويل ويخبرهم بأن يكفوا عن الانتظار ويقيموا مناحاتهم (**صمت**) ثم يعود اليوم ليصبح عادياً، تماماً كاليوم الذي مضى، يرمون لنا قليل الطعام، فنأكل لا نعرف كيف أو لماذا، كي نحيا فقط، نتحلق حول طعامنا البائس، ونلتهمه بسرعة تحت الشتائم والإهانات كالبهائم،

وبعدها تأتي المرحلة التالية: التحقيق (**تصويتة طويلة للشحرور**) الآن سأشرح لك ما التحقيق: يضعون طمّاشة على عينيك، والطمّاشة قطعة جلدية محكمة (**يمثل المشهد**) يضعونها هكذا (**يغطي عينيه بخرقة سوداء**) كي لا ترى أولئك الذين يعذبونك ثم تنهال الأسئلة: من فلان؟ أين كنت؟ من هم أصدقاؤك، ماذا قلت؟ بماذا فكرت؟ ويبدأ التعذيب (**الشحرور يصوّت متسائلاً**) التعذيب؟ كيف سأشرح لك**!**؟ في عالمكم أنتم الطيور لا يوجد تعذيب، دعني أقرّب الأمر لك، لو أمسكت بك (**يستدرك**) آه أنتم لا أيدٍ لكم أصلاً، ولكن افرض يا أخي أن عدداً كبيراً من الطيور ومن نفس جنسك أحاطت بك، وأنت لا تستطيع الطيران ولا الهرب مفهوم؟ (**تغريدة قصيرة**) ثم بدأت هذه الطيور تنقرك وتضربك بهدوء وتلذذ (**تغريدة تساؤلية**) هكذا فقط لأنك لا تفكّر مثلهم، وأحياناً للمزاج فحسب، ثمّ ظلّوا ينتفون ريشك حتى أصبحت عارياً تماماً (**تصويتة استنكارية**) ثم انهالوا عليك بأقدامهم وأيديهم وسياطهم (**تغريدة تساؤلية**) لأننا مجانين. أوغاد. قساة لا قلوب لنا هل فهمت؟ (**يطلق الشحرور تصويتة طويلة تعجّبيّة**) نعم. يفترض أننا بشر ومفكرون**!!** (**تغريدة استنكارية**)

لا أعرف يا أخي. ربّما أسوأ ما في الأمر أننا مفكرّون إلى هذه الدرجة**!!** **(تغريدة)** نعم حمقى **(صمت قصير)** لكن لسنا كلنا كذلك، خذني أنا مثلاً، ها أنا أحادثك، وها نحن نتحدث كأخوين من أسرة واحدة. وهذا يسعدني حقاً **(تغريدة طويلة لطيفة)** ويشرفني أيضاً أنني عرفتك، معك أنت يا صديقي أشعر أحياناً أني كسيدنا سليمان الحكيم **(الشحرور يطلق صوتاً تساؤلياً)** سليمان الحكيم نبي، إنه سيدنا سليمان الحكيم **(يعيد الشحرور التغريدة)** لا تعرفه؟ **(تغريدة قصيرة)** وهل يوجد أحد في الدنيا لا يعرف سيدنا سليمان الحكيم**!!**؟ **(تغريدة تساؤلية)** سيدنا سليمان الحكيم نبي والنبي هو رسول يبعثه الله عزوجّل كي يهدينا نحن البشر **(تصويتة تساؤلية)** يهدينا إلى الطريق القويم، يعلمنا، الصح، الخطأ، الخير، الشرّ **(تصويتة تساؤلية)** لأننا لا نفهم، صحيح أننا أذكى الكائنات إلا أننا لا نفهم، لهذا كل فترة يرسل الله لنا نبياً كي يهدينا ثانية **(تصويتة ساخرة)** لأننا أولاد حرام وأوغاد وأنفسنا ميالة للجشع والرذيلة والشرّ، ما إن يتركنا الله قليلاً حتى نفسق ونعود لشرورنا، لهذا كل فترة يرسل الله لنا نبياً، حتى..

صــوت : **(مقاطعاً من الأسفل)** يا جار لأجل الله رب العالمين إهدأ

قليلاً.

الرجـــل : (**مقاطعاً وبحدّة**) اخرس وسيِّف ونمْ (**يعود لمخاطبة الشحرور**) ماذا كنا نقول؟ (**تغريدة مديدة**) آها تذكرت معك أشعر أنني مثل سيدنا سليمان (**تصويتة متوسطة**) أستغفر الله لست نبياً يا أخي، من أنا لأكون نبياً!؟ أستغفر الله العلي العظيم افهمني: سيدنا سليمان كان يفهم لغة الحيوانات كلها (**تصويتة قصيرة**) نعم كل الحيوانات بما فيها أنتم الطيور، ولأنني أستطيع أن أفهمك أشعر أني كسيدنا سليمان في هذه النقطة، أي في قضية التفاهم مع الطيور هل فهمت؟ (**تغريدة**) الحمد لله. (**الشحرور يطلق ترنيمة طويلة**) الله؟ (**تغريدة قصيرة**) لا أصدق (**تغريدة أطول**) وأنتم لديكم شحرور مثل سيدنا سليمان الحكيم بهذه النقطة أيضاً؟ (**تغريدة متوسطة**) اسمه تاتيرو؟ (**تصويتة قصيرة**) وهل كان تاتيرو يفهم لغة الحيوانات أيضاً؟ (**تصويتة موافقة**) كل الحيوانات!؟ (**تغريدة الشحرور الطويلة**) بما فيها نحن البشر!؟ (**ينفجر ضاحكاً ثم يشرح للدمى**) يا إلهي قال كل الحيوانات بما فيها نحن البشر (**يضحك الرجل والشحرور يصوّت**) لا أعرف ما الذي يضحكني لكن الأمر مضحك فحسب (**تغريدة استنكارية**) لا والله أنا لا

أسخر منك (**التغريدة الماضية**) لا لاتزعل مني، يستحيل أن أسخر منك، أنت صديقي الوحيد في العالم، كيف سأسخر منك؟ (**تصويتة غاضبة**) آسف إن ضايقتك (**ينطلق صوت غراب، ثم تتلوه أصوات الدوري بشكل تتابعي، فأصوات الغربان، وتدوّم حالة ذهنية غريبة على الرجل وهو يهذي**) رأسي يا سيدي من فضلك، وأبداً لم أعمل مع.. آه، هذا تمييز عنصري يا سيدي (**يعصر رأسه بيديه**) ولست إرهابياً. (**الأصوات تتالى بشكل متداخل ومشوّه فيصيح**) كفى هل تظنني ولدت هكذا رجلاً هرماً**!**؟ أنا وديع حداد أنا (**يصيح بوجه أشباحه**) خسئتم وديع حداد لم يمت لأني أنا هو، انظروا إلي هل أنا ميت (**يصيح بشكل توكيدي**) هل أنا ميت**!**؟

صــوت : يا أخي كل فترة تحرمنا من النوم وترعب أولادنا بهذه الزعبرات، قسماً بالله إن لم تسكت سأتصل بهم هه.

الرجـــل : تباً لك ولهم (**نعيق الغراب**) ولك أيضاً، ومنذ الآن لن أضع لكم فتات الخبز على النافذة (**الشحرور يطلق صوتاً قصيراً**) يا أخي كل مرة يخرجوني عن طوري (**الشحرور يغرد بلطف**) حسناً لأجلك أنت لن أفعلها (**صمت**) لست قاتلاً ولا إرهابياً أنا فدائي (**الشحرور يطلق صوتاً**) صحيح أنني أحمل بارودة لكني فدائي

(الشحرور يصوّت) كيف ما الفرق!؟ **(غراب آخر ينعق)** صحيح ولكن... **(ينعق الغراب كأنه يقاطعه)** نعم ولكني لم.. **(يصوّت الشحرور)** لأنهم قتلوني أولاً هل تفهم؟ **(الشحرور يغرّد بتساؤل)** إليك كيف: بضعة أطفال يلعبون بكرة من الخرق، محمد نهى سمير وأنا. تقترب الطائرات من السماء يتراكض الناس كأنه يوم الحشر، الأطفال لا يفهمون ما يجري، محمد الذي كان يركض خلف كرة من خرق يتوقف ويحدّق إلى السماء وعلى وجهه تساؤل ما، تسقط أشياء من الطائرات، تتطاير البيوت والأتربة وجسد ما يطير، الدخان يملأ الدنيا ومحمد لم يعد موجوداً ولا الكرة التي من خرق، نهى أيضاً ستجد كرة معدنية ولما تمسكها لن تعود موجودة هي الأخرى، فيما بعد أيضاً، ستكون الدبّابات والقنابل والصراخ والأجساد الهامدة التي تلوّنت بالدم، بقع من دم، خيوط من دم، أنهار من الدمّ، الدخان في كل مكان. امرأة تولول وتصيح وصغار يبكون ويصرخون، ورجال يبكون أيضاً. ماذا بعد؟ ما الذي يمكنك أن تفعله؟ **(صوت الشحرور)** نعم يا صاحبي **(الشحرور يصوت بحزن)** لا شيء تعيش مسكوناً بالخوف، الخوف من الطائرات والدبابات وحتى المفرقعات، الخوف

من الكرات، الخوف من الأجساد النائمة أو الهامدة **(تغريدة تساؤلية)** لماذا الحروب**!؟** لأننا مجانين**!!** من يدري**!!؟** **(تصويتة طويلة للشحرور)** صحيح. منذ أن وجدنا نحن البشر صارت الحروب **(تغريدة الشحرور التساؤلية)** إنه الجشع يا أخي، هو ذا عالمنا: كباراً وصغاراً، وعندما تتحرك مطامع الكبار لابتلاعنا نحن الصغار، يحركون جيوشهم وجنرالاتهم وآلات دمارهم وتبدأ رقصات الموت **(يصف القبّعات العسكرية وخلفها الدمى المختلفة ويصدر أمره كقائد عسكري)** هجوم **(يتناول عباءته المغاربية ويرقص رقصة الحرب وهو يصدر أصواتاً أشبه بأصوات الرشاشات والقنابل والمدافع)** تنهال آلات الدمار. رصاص. مدافع. قنابل. طائرات، والناس يتساقطون لكن ليس كما في الأفلام بل يتساقطون حقيقةً وللمرة الأخيرة في حياتهم، يتساقطون مع صرخاتهم المريعة وعيونهم الفزعة، الجراح تنبجس، والدم يتطاير، نار، دخان، موتى.. **(يتوقف للحظات)** يا إلهي ما أسهل مشاهد الموت في الأفلام **(صوت الشحرور)** ماذا بعد؟ تصبح ما أنت عليه، تصبح ما اضطرّوك أن تكون، تحمل البارودة وتقاتل، تدافع عن كل ما تحبه وتراه حقك، تدافع عن حياتك، فتنهال

عليك الألقاب: قاتل مجرم إرهابي، لكن هذا أسهل ألف مرة من أن تكون صبياً يموت وهو يركض خلف كرة من خرق، أليس كذلك**!!** (**يطلق الغراب نعقة واحدة فيصيح معلناً**) محكمة (**يصفّ الدمى المخصصة لرجال المحكمة ويصف دمية أخرى تمثل المتهم، ثم يحرّك دمية القاضي**) هل أنت فلان الفلاني؟ (**يقلّد متهماً ربما كان هو ذاته**) نعم سيدي القاضي (**يحرك القاضي**) هل فعلت كذا وكذا؟ (**يحرك دمية المتهم**) نعم سيدي (**يقلّد القاضي**) وكذا أيضاً؟ (**يتمثل المتهم**) نعم سيدي (**يتمثل القاضي الثاني**) وفي يوم كذا من الشهر الثالث في سنة كذا هل قمت.. (**يتمثل المتهم الذي يقاطع القاضي**) نعم (**يمثّل القاضي الثالث**) وماذا عن.. (**يتمثل المتهم**) نعم. نعم. نعم. فعلت كل هذا (**يمثل القاضي الثالث**) بم تدافع عن نفسك؟ (يتمثل المتهم) سيدي القاضي لن أدافع عن نفسي، لكني فقط سأحدّثك عن أحلامي طيلة عشرين عاماً، رأيت أمي في المنام وهي تبكي، كنا نركض ونركض، وكان شيء ما يجري خلفنا، كان الغول، نعم سيدي، الغول، ثم فجأة صرنا في مكان ما، خيمة ربما، أو قبو لم أعد أذكر، وفجأة ظهرت أختي في المنام، كانت تلبس ثوباً أحمر، ثم جلست أمامنا وهي تبتسم، ثم لا

أعرف كيف صار الثوب الأحمر يكبر ويكبر وأختي كانت تذوب وسطه كالشمع عندما تلتهمه النار، تلاشت أختي ثم لم يبقَ منها سوى بقعة حمراء، لم تكن دماً**!!** قمت، قالت لي أمي: خذ هذا الدم معك واذهب إلى الدار، قلت لها يا أمي هذا ليس دماً. قالت بلى بلى خذه إلى الدار وعد بسرعة، ولا تنسَ أن تحضر لي معك المفتاح، ولما خرجت اكتشفت أني نسيت طريق الدار، فعدت لأسأل أمي، لم تكن موجودة، أحسست في المنام أن الغول أخذها، فصرخت. صحت. زعقت. ثم أفقت (**يلهث مكدوداً**) في حلم آخر رأيت كرة ليست من الخرق تركض خلفي وأنا أعدو، أركض فتركض خلفي وهي تكبر، أدخل في جحر صغير، فتصغر وتدخل خلفي وقد صار لها أنياب، أطير فتطير ورائي أصل إلى نهاية العالم فتظل تركض خلفي وأنيابها تكبر، ثم ولشدّة خوفي أقفز بعيداً عن العالم كلّه فتلحقني أيضاً (**يبكي**) في حلم آخر سيدي القاضي (**يتمثل القاضي الرئيسي وهو يقاطعه**) يكفي. حكمت المحكمة على وديع حداد (**ينطلق صوت الغراب بنعقة واحدة فيهمس له**) بلى أنا وديع حداد ولكنهم لا يعرفون (**الشحرور يغرّد تغريدة قصيرة جميلة**) شكراً لك لأنك تصدّقني يا صاحبي (**يتابع**

الهمس كأنه يبوح بسّر) وفي مرة أخرى كنت كارلوس. نعم. كارلوس. لا لم يقبضوا علي في السودان، بل ذهبت وتنكّرت وصرت محمد بن حربا، ولما حاصروني في باريس، صرت سوغومون تهرليان، وكان عليّ أن ألاحق ذلك السفاح إلى ألمانيا كي أقتله **(يطلق الشحرور صوتاً يبدو للرجل استنكارياً)** كان علي أن أقتله، كي لا يشعر هو وأمثاله أنه يمكنهم أن يرتكبوا كل تلك المجازر ويعيشوا مترفين مرفهين، يجب أن يكون هناك عقاب ما أليس كذلك!؟ **(الغراب يطلق ثلاث نعقات)** هل أتوا أخيراً **(يطلق الغراب نعقة واحدة)** ليكن **(يبدأ بالاستعداد فيخلع مشّاءته البيتية ويضع حذاءه بقدميه)**

(طرقات على الباب)

صــوت : محمد عويّد افتح الباب

الرجـــل : لحظة من فضلكم **(يسير بالممر ويختفي فنسمع صوت فتح الباب ثمّ صوت الرجل)** كنت بانتظاركم يا سادة، أنا جاهز **(تمرّ ثوان قليلة)** لحظة لو سمحتم، حلّوا الرباط قليلاً من فضلكم، دقيقة فقط

صــوت : طيب لكن لا تتأخر.

الرجـــل : (من الخارج) حسناً **(يظهر ثانيةً وقد ارتدى سترة**

المجانين البيضاء الطويلة الأكمام لكن المحلولة وينطلق صوت الشحرور لطيفاً وواقعياً جداً، والرجل يتناول كيس الخبز ويقطع منه الفتات ليضعها على حافة النافذة، ثم يلقي نظرة على الخارج) وداعاً (يغيب في المدخل)

الرجـــل : أنا بأمركم يا سادة

الصــوت : هيا

(نسمع صوت إغلاق الباب ثم صوت المفتاح الرئيسي للكهرباء فتعم العتمة)

النهاية

رجل وست حقائب

جيهان فيصل ملا طيب . مصر

يفتح الستار فنرى شارعا يحتوى على عدة مباني بعيدة وفى المنتصف رصيف وخلفه نخيل مصفوف بشكل مرتب جميل يوحى بأنه شارع خليجي ..على يسار المسرح جزء من مبنى سكني... نسمع جلبة وأصوات أشخاص غير واضحة وكأنها لهجات متعددة ومتداخلة فى جدال غير مفهوم نتبين منه صوت أبى ابراهيم بطلنا...

ـ اهدأوا يا أخوان ..ما كل هذا الانفعال؟ لو فقط تهدأون سنتوصل الى اتفاق..

(تستمر جلبة النقاش غير الواضح وفى نفس الوقت نرى حقائب يتم دفعها على عجلاتها من المبنى لتستقر على الرصيف.. و بعد قليل نجد أكياس التسوق العديدة تقذف أيضا من داخل المبنى الى الرصيف نسمع صراخ أبى ابراهيم):

ـ انتظر ماذا تفعل أنت؟ توقف أنت أيضا.. لا تدفعوا الحقائب بهذا الشكل .اياكم أن ينكسر شئ..فلنتناقش.. صبرا بالله ما أغلظك أنت ..وأنت أيضا..ألا تقدرون الأحوال؟ ..

ـ انتظر واصطبر..ربما تهدأ الأحوال ..كم من طبول

قرعت فوق الرؤوس من قبل ..ثم بقدرته تعالى مرت الأزمات تباعا بسلام ..انتظر ..لا لا ..أين أذهب بكل أغراضى ألا تصنع معروفا أبدا..لا تدفعنى هكذا ..لا

يخرج الينا أبو ابراهيم كأنما يدفع بأيدي رفاقه هو الآخر بعدما دفعوا حقائبه الست..نراه رجلا فى منتصف الخمسينيات من عمره يظهر على المسرح بسرعة بفعل الأيدي القوية الى هذا الشارع مطرودا من أحد ما...يعدل من وضع هندامه وينظر خلفه فى غضب

ـ الأزمة عاصفة ..عاصفة..وتشملنا كلنا ولست أنا وحدى..كان أجدى أن نتفاهم يا رفاق..أهكذا يكون الرفاق؟ لعنة الله عليكم وبئس الرفقة كنتم..

يقف الرجل متأملا حقائبه وأكياسه وتعبير على وجهه يوحى بهدوء ما قبل العاصفة ونتوقع أنه سينفجر غضبا فيمزق هذه الأكياس والحقائب أو يعود ليكمل المشاجرة ..لكنه يضع يديه فى جيبيّ بنطاله كأنما عز عليه أن يطرد ..وينظر خلفه نحو المبنى ثم يقول

ـ كيف تخرجوني جبريا هكذا من المسكن؟ حقا ان لم تستح افعل ما شئت ...(**يطأطئ رأسه ويقول بصوت خفيض**) أنا من يجب أن يستحي ..لقد تحملتموني لمدة شهرين منذ فقدت عملي ...احقاقا للحق ..لم تكونوا بئس الرفقة فيها ولى من سنين..شاركتكم السكن والمأكل والمشرب لعدة سنوات مضت ..كنا 12 جنسية من كافة

الجهات الأصلية للكرة الأرضية نتنفس هواء بضع أمتار مربعة تؤينا ..ورغم صعوبة الحياة لا يمكننى أن أمحو ذكريات حميدة لن تغادرني حتى أموت....حتى جاءت الأزمة ..يقال إنها أزمة مالية عالمية ..ففقد بعضنا عمله وخفّضت رواتب البعض الآخر الى النصف .. وكنت أنا ممن عاش ككائن طفيليّ على أعتاقكم فى انتظار أن أجد فرصة عمل أخرى، الا أن الأزمة التى حرمتني وظيفتي، قطعت عليّ السبيل إلى فرصة عمل جديدة، لا لم تكونوا بئس الرفقة، تحملتم عني أجرة المسكن وتقاسمتموها عنى لمدة شهرين حتى أرزق بعمل، ما ذنبكم فى تحمل تبعة أزمتي برواتبكم الضئيلة؟ كان أجدر بي أن أستحي ولا أكلفكم مشقة أكثر من ذلك..لكن أملي فى أن أجد وظيفة ريثما تنتهي اقامتي هو ما جعلني أستمر فى البقاء معكم ..حتى انتفض أحد الرفاق وقال كفى..معلنا ضم عضو جديد مستعد للمشاركة فى دفع ايجار «جحر» الأرانب هذا الذى يسمى بالخطأ سكنا، سمعت اعتراضا أو اثنين خافتين ثم نزعت براقع الحياء، واتحد الرأي على طردي أخيرا من السكن ..(**يتنهد**) طردني الرفاق ..لا بأس فقد طرد يونس من المركب الى البحر من قبل خوفا من ثقل الحمولة وهل أنا أفضل من يونس عليه السلام؟

على الأقل رمى يونس فى البحر وابتلعه الحوت..أما أنا فرموني الى الرصيف بحقائبي الست ..حمدا لله فأنا لا أجيد العوم..

يجمع حقائبه المبعثرة وأكياسه من هنا وهناك ..

ـ لعل الهدايا لم تنكسر أو تنبعج داخل الحقائب ..لنرى.. ست حقائب هى حصيلة رحلة اغتراب بدأت قبل بضع وعشرين عاما وما كنت لأعرف متى تنتهي لولا اندلاع الأزمة ..آه لو صبر القاتل على المقتول لأخبرتهم بأننى مسافر الليلة لحضور حفل زفاف ابنتي ولكن ما يكن بعدها...ست حقائب تحوي داخلها الهدايا المنتقاة للأحباب ..بدأت الرحلة بحقيبة واحدة وها هى تنتهى بست حقائب..وما بين الحقيبة الأولى والست الأخيرة ولد من وُلد ومات من مات ..وكبر الصغير وشاخ الكبير ..وغزا الشيب الرؤوس بضراوة فى غفلة من لهاثنا خلف لقمة العيش..يا إلهي ..مرت الأعوام بأسرع مما تخيلنا.

يفتح احدى الحقائب قائلا:

ـ الهدايا تحتاج لإعادة ترتيب ..لم يسعفنى الوقت لفعل ذلك..والآن يمكننى ترتيب كل شئ حتى موعد اقلاع الطائرة (**يصمت قليلا ثم يقول**) غدا ... ولنبدأ بهذه..

إنها حقيبة أم ابراهيم زوجتى ..

فيخرج رداء نوم نسائيا أحمر اللون بوردات بيضاء ..يبتسم مخاطبا القميص

ـ مرحبا أم ابراهيم ..جئتك بألوانك المفضلة ..الثورية مثل مزاجك ..افتقدك كثيرا ..أنا فى حالة افتقاد مستمرة لك منذ بضعة وعشرين عاما..لا أعرف كيف مضت وكيف طاوعتك على البقاء بعيدا كل هذه المدة؟

ـ (**يقلد صوتها بمسكنة**) عقد عمل فى الخليج يا أبا ابراهيم؟ وماذا أنا فاعلة هنا وحدي مع طفلين صغيرين؟

ـ هل تعتقدين أنني يجب أن أرفض السفر؟

ـ ولكن ماذا عن التزاماتنا الكثيرة؟ ..أقساط الشقة.. أقساط الأثاث..وقسط الثلاجة وقسط التلفاز .وما نحتاج من مال استعدادا لدخول ابنتك المدرسة ..و..

ـ (**كأنها يقاطعها متنهدا**) كأننا نعيش كل الحياة بالتقسيط..بقى أن ندفع أقساطا عن أنفاسنا ..سأسافر لأفي بالأقساط..لعل عاما يغطيها ثم أعود.

ـ (**كأنه يمسك هاتفا**) ألو؟ أم ابراهيم؟ كيف حالك.. لا أطيق صبرا ها قد مر ثلاثة أعوام ..وأنا بعيد عنكم.. أعمل وأطبخ طعامي وأغسل ملابسي وأعتصر آلام

الفراق عنكم...الآن أفكر بالعودة.

ـ **(يقلد صوت زوجته بلهجة عملية باردة وكأنها تضغط أزرار آلة حاسبة)** لا أظن أنه موعد العودة الآن ..علينا أن نسدد أقساط الشقة المصيفية ..ومصروفات الدروس الخاصة لولديك وأقساط ما اشتريناه من أجهزة كهربية ومنزلية جديدة

ـ **(بائسا) لا!!** ..مزيد من الأقساط و مزيد من الانتظار...ألهذا أنت رابطة الجأش غير ملتاعة كسابق عهدك؟ أحقا تهزم أعباء الحياة عواطفنا وتجعلنا ندهسها ونمضى..ليسحب عام وراءه عاما ثم عاما حتى مضى عشر سنوات دون أن نشعر ..فقط أنبئنا الشيب الزاحف على الرؤوس كلص متسلل محنك...لاحظت عليك وقتها تغيرا آخر خطيرًا..أنكرت تفكيرى فى العودة ..بل لم تبال باقتراحي سفركم معي وليكن ما يكن من تقلص المدخرات..

ـ **(يقلد صوتها ويمسك آلة حاسبة وهمية)** لا يا أبو ابراهيم..سنبقى نحن هنا حيث استقر الطفلان بالمدرسة، سافر أنت وارسل لنا كل شهر ما يكفينا.

ـ أهكذا الأمر اذا؟ صرت مجرد رقم فى حياتكم تذكرونه كل شهر فى بطاقة مصرفية أمام الموظف المختص؟؟!

ـ لا تكبر الأمر يا أبا ابراهيم ..واحكم لف أوراق الجرائد حول كؤوس العروس كيلا تنكسر.

ـ **(كأنها تذكر)** الكؤوس؟ العروس؟ ..أية كؤوس وأية عروس؟ فيم كنا نتحدث؟ إلهى ما أبرع النساء فى اللف والدوران وإدارة دفة الأحاديث لصالحهن

(يفتح احدى الحقائب فيخرج منها كؤوسا ملفوفة فى أوراق جرائد..)

ـ كئوس العروس وأكواب الشاي ..حمد لله لم ينكسر منها شيء **(يقلد صوت زوجته وطريقتها وهى تستعمل الآلة الحاسبة)** أبو ابراهيم احفظ ..12 كأسا طويلة ..12 كأسا قصيرة..12 كوب شاي ..12 كوب عصير ..12 فنجان قهوة..احفظ يا أبا ابراهيم

ـ **(بصوته)** ولكن يا أم ابراهيم ..كيف لى أن أحفظ كل هذا؟ لماذا لا تشترين مثل هذه الأشياء من المحال حولك بدلا من تحميلي كل هذه الأثقال فى حقيبة السفر؟

ـ **(يقلد صوتها وطريقة استخدامها الآلة الحاسبة)** كل دستة تشتريها من عندك ستوفر لنا 17 جنيها وخمسين قرشا..

ـ يا امرأة سأدفع هذه السبعة عشر جنيها والخمسين قرشا جمارك للوزن الزائد فى حقيبتي.

ـ (**يقلد طريقتها**) يا رجل ..أتريد أن ينتقص من مقامنا أهل العريس؟ ألا تريد أن تفخرالعروس بأن أباها لم يبخل و أتى لها بأغلى الأشياء أمام أهل زوجها؟

ـ كيف أغلى وأنت تقولين إنها أرخص هنا؟ قد يفهمون العكس تماما.

ـ (**بصوت زوجته**) يا رجل لا تجادل ..اشترِ ما طلبت منك كى تفرح العروس وتزهو بها أتاها أبوها وكفى.

ـ نعم كفى ..مجنون من يجادل امرأة.. المهم أن تفرح العروس..(**بدهشة**) من هى العروس؟! ابنتي ذات الضفائر الحالكة السواد التى تحتضن دميتها وتنيمها بجوارها كل ليلة؟ أى عروس؟ ابنتي التي أوصلتها لتّوي قبل سفري الى مدرستها وكانت خائفة تتشبث بيدى راجية ألا أتركها وحدها؟

ـ (**بصوت رؤف كمن يحادث طفلا صغيرا**) حبيبتي.. ستقضين وقتا طيبا وتتعلمين أشياء مفيدة وستلعبين مع أطفال فى سنك.

ـ (**يقلد صوت ابنته**) لا تتركنى يا بابا ..لا أحد يريد أن يلعب معي.

ـ (**بحنان**) كيف مضى الوقت منذ ذاك اليوم وحتى

صارت عروسا هذا اليوم؟ يبدو الأمر كحلقة مفقودة قام الرقيب بقصها فى مسلسل تلفزيوني طويل ..فاختصرت الأحداث بصورة غير منطقية ..مابين طفولتها وشبابها حلقة مفقودة..هل كنت على سفر طوال هذه العمر؟.. آخر زياراتي لهم بدت منطوية حزينة..ما بها يا أم ابراهيم؟

ـ **(يقلد صوت زوجته)** لا تقلق ..هذه هى أطوارها.. بين الحزن والنقمة تارة والرضا والسرور تارة أخرى منذ تخرجت فى الجامعة.

ـ الجامعة**!!** أنهت حبيبة أبيها دراستها وبعدها بسنوات صارت عروسا ..وسأسلمها الى شاب لم ألتقهِ من قبل سوى مرتين أو ثلاث ..و

ـ **(بصوت زوجته كأنها تقاطعه)** لا تنس يا أبا ابراهيم.. أن تشترى من المحال عندك ..قماش فستان العروس.. وأقمشة حجرة الصالون وأغطية الفراش والستائر وأجهزة المطبخ وكؤوس العصائر وأكواب الشاى وطقم القهوة و ..و..

(يمسك رأسه كأنه تعب من كثرة ما تلقنه من طلبات)

ـ وقمصان نوم للعروس؟

ـ **(ثائرا)** لا هذا كثير ..أأشترى قمصان نوم لابنتي؟

ألا يكفي أن الغريب سيأخذها منى بل وسأسلمها له بنفسي؟

ـ هل سأبكى وأنا أعطيها لزوجها يوم الفرح؟ على نفسي أم على فراقها؟ أنا لا اعرفها ..آخر صورة منطبعة فى ذهني صورتها يوم دخول المدرسة ..وهى ستغادرنى لبيت زوجها فمتى أتعرف على ابنتي؟ ربما فى الجنة؟ ومن أدراني أنها ستدخل الجنة؟ أنا لم أربها لأعرف..كف عن أفكارك السخيفة يا أبا ابراهيم ..وأحكم اغلاق حقيبة العروس لئلا ينكسر شيء ..

(يغلق الحقيبة وينتقل الى حقيبة أخرى أصغر حجما ..يخرج منها قميص شاب فى العشرينات وقبعة كتب عليها «ان واى» رمزا لمدينة نيويورك وهاتفا محمولا ..يرتدى على رأسه القبعة يخاطب القميص برزانة)

ـ هاك الأشياء التى طلبتها يا ابراهيم وأحدث أنواع الهواتف المحمولة رغم أن هاتفك السابق كان بأفضل حال، ولكن كما تقول أمك: دعه يساير أقرانه فيما يرتدون ويقتنون .. ما يهمني يا ابراهيم أن تعلم أنك رجل البيت فى غيابي .. ويزعجني أن أسمع من أمك أنك تدخن السجائر خلسة فى حجرتك؟ ونصيحتي لك وأنت على أعتاب الشباب يا بنى مودعا الصبا تذكر أن الرجولة ليست فى دخان السجائر..بل فى مواقفك

وتقدمك الدراسى وحفاظِك على أمك وأخويك فى غيابي ..أما عن مجموعة الصبية الذين يحاولون جرك لطريق السوء اعتقادا بأن أباك يرسل اليك ما لاحصر له من مال فابتعد عنهم ..

ـ **(يتقمص شخصية ابنه بالقبعة والهاتف المحمول على أذنه).**

انهم أصدقائى يا أبى، وأمى تروج عنهم الشائعات فحسب

ـ الصديق لا يدفع صديقه إلى التهلكة يا بنى..لعل الوقت ضيق، لكننى فى الإجازة القادمة سأفيض فى الحديث معك.

ـ **(يقلد ابنه المتهكم)** الإجازة القادمة بعد عام أو عامين.. حسنا سأنتظرك حينها فقط ذكرنى أين توقفنا فى هذا النقاش الممتع يا أبي ..

(يطأطأ الأب رأسه بحزن):

ـ الولد يتهكم علىّ يا ام ابراهيم

ـ **(بصوت زوجته)** لا تكبر الأمر يا أبا ابراهيم

ـ **(ثائرا)** بل الأمر كبير يا أم ابراهيم ..الهوة تتسع بينى وبين ابني وابنتي بل حتى أخيهم الصغير ..هذا الولد الذى جاء وليد احدى اجازاتي القصيرة ..ثم قابلته

عندما بلغ العامين فنظر الىّ وقال (**يقلد صوت طفل**) «من أنت؟» ألا يعد هذا دليلا أن المشكلة قد كبرت وكبرت؟ والبعد طال ثم طال؟

أثناء نوبة غضبه يخرج من حقيبة صغيرة لعبة ابنه الصغير وهى بندقية ذات صوت مميز فيهدأ فجأة ثم يقول بصوت طفل صغير:

ـ أهلا يا بابا

ـ (**يجثو على ركبتيه كأنما يحادث طفلا صغيرا**) أهلا حبيبى..هل تعرفنى؟ الآن صار عمرك 5 سنوات.. التقينا خلالها ثلاث مرات فقط إحداها وأنت فى بطن أمك ..هل تذكرني الآن؟

ـ نعم أنت بابا

ـ (**بفخر وفرح**) أحسنت

ـ (**يكمل بصوت الطفل**) الذى يحضر الهدايا كل عام

ـ (**مصدوما بصوته هو**) أهذا ما أفهموك اياه؟ أو فهمته أنت من تلقاء نفسك...فلا حاجة لتفسير أى غموض.. الموقف يشرح ذاته ..أنا الرجل الذى يأتى كل عام بست حقائب مليئة بالهدايا ..وها أنا ذا أعود ...بست حقائب أيضا.

(يصمت حزينا لكنه يبادر نفسه بلهفة الطفل)

ـ وأى لعب أحضرت هذا العام لى؟

ـ **(يبتسم كأنما يستسلم أمام الطفل ويرفع البندقية اللعبة)** هذه.

ـ **(يقلب اللعبة كطفل غير مقتنع)** ما هذه؟ كيف تعمل؟

ـ تضغط الزناد هكذا فيصدر عنها هذا الصوت هكذا و ...فقط

ـ فقط!! ألا تتضمن الساعة السحرية التى تحولني بأشعة الطاقة الخماسية الليزرية الى كائن خارق يهزم وحوش الفضاء المارين الى الكوكب الأخضر لتدميره وعلينا انقاذه؟

ـ ما.. ماذا؟ من أين جئت بكل هذا الهذيان الفضائي يا ابن الخامسة؟

ـ من أفلام الرسوم المتحركة ..البطل الخارق

ـ وماذا عنك؟ ماذا تريد ان تكون عندما تكبر؟

ـ رائد فضاء ..أو شرير ..لأدمر العالم بقواي الخفية

ـ شرير!! لعنة الله على الرسوم ..كم تغيرت الأجيال كنا نحلم أن نصير ضباطا وأبطالا والآن يرون البطولة فى الشر

(يغلق حقيبة الابن الأصغر .. يفتح حقيبة أخرى يرتبها)

ـ هذه حقيبة أمي الغالية وأخوتي ..(**يتقمص شخصية أمه ممسكا قطعة قماش**) هل أحضر لزوجتك أكثر مما أحضرت لى يا ابا ابراهيم؟

ـ لا يا امي ..أحضرت لك أغلى الأقمشة وأحلاها.. واشتريت لأم ابراهيم بضعة أشياء ولكن ليست فى جمال ما انتقيت لأمي الغالية.

ـ (**يكمل تقمص شخصية أمه**) وهل وجدت الوظائف لابناء أخوتك كما أوصوك؟

ـ ماذا تظنين ابنك يا أمي؟ الحاكم بأمره حيث أعمل؟ لو كنت بهذا النفوذ لوجدت لنفسى عملا بديلا عن الذي سرحت منه ..أعلم أن أخوتي وأصدقائي لن يتفهموا ذلك ومنهم من امتلأ غضبا وضيقا خافيا منى ..أرى هذا فى زلات ألسنتهم ونظرات عيونهم ..ربما يفهمون يوما ..

(يغلق حقيبة أمه وأخوته ويفتح آخر حقيبة يرتب ما بها)

ـ هاقد وصلت إلى الحقيبة الأخيرة..هدايا أصدقائي... في السابق كانت أكثر امتلاء عن ذلك..تناقص عدد الأصدقاء بين من رحل عن العالم ومن رحل إلى بلاد أخرى سعيا وراء فرص أخرى للعيش الكريم..هناك

أيضا من رحل ذهنه بفعل داء الزهايمر وبقى جسده.. وحده صديق طفولتي الذى بقى فى نفس المكان ..أميزه من أشيائه وطقوسه منذ لحظة دخولي شارعنا القديم عند عودتي كل مرة ..هذا مقعده فى شرفته الصغيرة.. وذاك كوب الشاي بالنعناع على الإفريز ..وتلك آنية الريحان العبقة التى يزرعها فى ركن شرفته ..وهذه لعبة الطاولة التى شهد نردها صولاتنا وجولاتنا فيما مضى من وقت جميل.

ـ كيف حالك يا صديقي؟

ـ (**يتقمص صوت صديقه**) له الحمد على كل حال ..ابن عاطل وابنة غير قادر على اعدادها للزواج ..هل أخطأت حين خفت السفر والاغتراب مثلك يا أبا ابراهيم؟

ـ صديقي الذى هزمته الهموم وضيق ذات اليد..جعلني أرى وجها آخر حسنا هذه المرة للاغتراب والفراق ..

(يستلقى على ظهره ويتنهد متأملا) :ـ

ـ أيها الفراق لو كنت رجلا لقتلتك ..ولكن أي فراق؟ أنا لم أفارقهم طوال الأعوام الماضية الا بجسدي ..كنا دائما على وصال.

(تخفت الاضاءة كأنه نائم على فراش وبجواره يرن الهاتف فيوقظه من نومه):

ـ **(بصوت ناعس)** ألو؟ نعم كنت نائما يا أم ابراهيم.. كان يوما شاقا فى العمل ..ما الأمر؟ لابد أنه أمر خطير.. ماذا؟ ابراهيم انضم إلى مجموعة صبية..لا تكملي أهم من يحرضونه على تدخين السجائر و...ماذا؟ مجموعة أخرى فى الجامعة؟ على ماذا يحرضونه هذه المرة؟ ..التظاهر ضد أمريكا؟ ماذا فعلت له أمريكا؟ يطالبون بتحرير العراق وفلسطين!! **(ينزع عن رأسه القبعة وينظر اليها جيدا ثم يتساءل بدهشة)** ابراهيم آى لاف نيويورك يتظاهر ضد أمريكا!! على منطق أكرهك ولا أطيق فراقك أم ماذا؟.. سأكلمه **(بجدية مخاطبا ابراهيم)** يا ابراهيم ..التفت إلى دراستك وحسب ..زمن البطولات انتهى.

(يعود للنوم فيرن الهاتف من جديد):

ـ ألو؟ نعم كنت نائما يا أم ابراهيم ..كان يوما قاتلا فى العمل اليوم..ما الأمر؟ لابد أنه أمر خطير..تحدثي.. ابنتي مكتئبة؟ كيف هذا؟ انهت دراستها وتزوجت صديقاتها بينما قبعت هى فى البيت بلا شيء تفعله.. دعيها تبحث عن عمل ..ولم لا؟ تخشين من المضايقات والتحرشات؟ هذا يتوقف على طريقة تربيتك لابنتك يا

أم ابراهيم...دعيني أكلمها ..يا ابنتي لا تخافي ..تسلحي بأخلاقك واخرجي الى معترك الحياة..تعرفي عليها ودعيها تعرفك.

يعود الى النوم ..يرن الهاتف مرة أخرى فيرد بصوت ناعس:

ـ ألو؟ نعم يا أم ابراهيم كنت نائما ..كان يوما ..(**يصيح بغضب**) لماذا تتصلين دائما فى هذا الوقت الحرج؟ ماذا؟ الصغير مرتفعة حرارته؟ وتقيأ كل محتويات معدته؟ اطرقي أبواب الجيران ..دعيهم يساعدونك لنقله الى المستشفى ..لا تترددي فالجار للجار.

يعتدل وينهض ..يمسك رأسه بين كفيه فى تأزم شديد:

ـ حبيبي الصغير مريض ولا استطيع أن افعل له شيئا، حبيبي الذى يعتقد ان كل مهمتي كأب إحضار الهدايا كل عام ..

ـ كم مر بي من أزمات كهذه وأكثر على مدى الأعوام المنصرمة ..يا إلهي لك الحمد أنني تحملت.

يسمع رنينا على هاتفه فيغمغم قبل أن يجيب:

ـ أم ابراهيم ..هذا ليس معادك المفضل لازعاجي.. أقصد للاتصال بي.. (**ينظر الى الرقم جيدا**) لا ليس ام ابراهيم..انه أحد زملائي (**ينظر الى المبنى**) أحبائي

هل اشفقتم عليّ من حياة الرصيف تلك؟ نعم العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام ..ونحن عشرة طويلة.. سنوات طويلة مرت تقاسمانا فيها شقاء العمل ولوعة فراق الأحبة (**يجيب الهاتف**) ألو؟ كيف حالك صديقى سانج هل أنتم نادمون على ما فعلتموه معي؟ هل تبكون ألما وحسرة لما آل اليه حال الوفاء والصداقة ؟ لا بأس لست غاضبا ..أعرف حالتكم المتأثرة بالأزمة المالية لذا أنا سامحتكم و.. ماذا؟ كوب شاي كرك زائد عن حاجتكم؟

يتوقف لحظة مصدوما ونحن كمشاهدين نتوقع أن يسب ويلعن لكنه يقول بعزم:

ـ أنا قادم لآخذه.

ينهض ويتجه الى المبنى يسار المسرح ..يغيب داخله ثم يظهر بعد قليل بكوب شاى كرك(شاى هندى باللبن المكثف والبهارات):

ـ شاي كرك ..لا قطع الله لكم عادة يا رفاق ..شكرا لكم على أية حال ..لاذنب يدينكم ..أنا فقط من ارتفع سقف توقعاته الى عنان السماء ..ولكن شكرا على اية حال.. جاء الكوب الساخن فى وقته تماما ..

يعود للجلوس على الرصيف ويشرب باستمتاع:

ـ اعتدتم طوال الأعوام الماضية ..على اعداد هذا الشاي قبيل غروب كل يوم ..ما أطيبه..لكم استمتعت به معكم.. رائحته الزكية كانت تتحالف مع تيار الحنين وأحزان المساء الجارفة ليصنعوا نسيجا من مدهشا من آلام الفراق النبيلة.

يرتشف رشفة أخرى:

ـ لولا مجيئي هنا ما تعرفت على الشاي الكرك..ولقد تعرفت على أشياء أكثر وأكثر هنا .. لعل هذا من مزايا هذا السفر الطويل..عندما كنت صغيرا تمنيت أن أكون بحارا لأزور مدن العالم وأرى شعوبها ..ولكن عملي هنا جعل العالم يأتي لي بدلا من أن أذهب اليه..قابلت نصف شعوب الأرض هنا ..تعرفت على دأب ونشاط العامل الفلبيني والأسيوي ونيران طعام الهندي والباكستاني وعقدة الشعور بالتفوق لدى الأوربي، وحدة انفعال الأفريقي ثم هدوءه فى الحال..وبحمق الانسان الفطري فى اصدار الأحكام المطلقة بناء على تجارب مفردة.. عندما كنت أحب أناسا تصير شعوبهم ملائكة وبلادهم جنات تجري من تحتها الأنهار.. وعندما كنت أكره آخرين ..أروج لكراهية واحتقاركافة بني جنسهم وكأن هذه الشعوب عليها أن تتحمل وزر أبنائها.

ـ **(يتنهد ويكمل شرب الشاي)** آه ..هذه الأشياء سأفتقدها..المدهش فى الأمر أن أكتشف أن كل من قابلت من مِلل ونِحل انما جاءوا من نفس واحدة أورثتهم نفس الحنان ونفس الخوف ونفس القدرة على الحلم بل ونفس الحمق والجنون.

يكمل الشاى ويتنهد:

ـ ترى كيف ستستقبل أم ابراهيم خبر عودتي النهائية؟

ـ **(يقلدها وهى تحمل الآلة الحاسبة)** لقد فاجأتني يا أبا ابراهيم ..عليّ أن أعيد حساباتي مرة أخرى لأرى ان كان يمكنك العودة أم ..

يصرخ فجأة ويمثل أنه يخطف منها الآلة الحاسبة ويطيح بها بعيدا ..

ـ دعك من هذه الآلة الحاسبة الآن ..كفاك تفكيرا بالأرقام..وفكرى بقلبك ولو مرة واحدة

ـ **(يقلد زوجته)** قلبي؟ الآن تسأل عن قلبي؟ بعد أكثر من عشرين عاما من تحكيم العقل والآلة الحاسبة؟ أو مُرْ بما هو مستطاع يا أبا ابراهيم

يبدو عليه أنه مهموم بفكرة مواجهة امرأته ثم ينظر الى كوب الشاي الذى نفد.

ـ نفد الشاي ..كان لذيذا..سأدعي أنني أعيد اليهم

الكوب لعلهم يعطونني المزيد منه.

يسير فى اتجاه المبنى لكنه ينظر مجددا الى الكوب:

ـ انه كوب بلاستيكي.. اللعناء ..قطعوا عليّ الطريق كيلا أطرق بابهم بحجة ارجاع الكوب ..لعلهم خافوا أن تضعف مشاعرهم ..فيدعوننى من جديد الى السكن المجاني حتى انتهاء الاقامة ...ما العمل يا أبا ابراهيم؟ من أسأل؟ من استشير؟ تعودت أن ألجأ الى أبي رحمه الله لاستلهام رأيه فى أمور مصيرية عديدة..لم تكن كل آرائه فى الحقيقة صائبة ..لكننى كنت أحب أن أسمع رأيه.. ترى ماذا كان ليقول لي فى مثل هذا الموقف؟

ـ (**يتقمص صوت أبيه**) يا ولد يا أبا ابراهيم ..أتحمل الهموم ومفرِّج الكروب موجود..أتفكر فى باب أغلق لحكمة وتنسى بابين فتحا برحمة؟ ما احمق الانسان.. أما علمت أن رزقك فى السماء لن يمسسه أحد ليطمئن قلبك؟ ..علام تحمل هم مستقبل لم يأت بعد وتتجاهل ما يحدث الآن؟ ماذا عساك تفعل لو كان مستقبلك كاحلا مثل ظنونك؟ أعساك تمنع شرا أو أذى؟ فلم الهم اذاً؟ افرح بما بين يديك الآن يا أبا العروس..ستدخل الجنة بزيجة هذه الفتاة ..انظر الى نصف الكوب الملآن.. ربما امتلأ النصف الفارغ قريبا ..

يصمت أبو ابراهيم كأنما هو مشدوه بما قال أبوه ..يمسك الهاتف ويتحدث:

ـ مرحبا عزيزتي أم ابراهيم ..أنا قادم لأفرح معك... اتركى الآلة التي بيدك ..أسمع ضرباتك على أزرارها.. سنفرح أولا وليكن ما يكن بعدها

ـ مرحبا إبنتى الحبيبة ..اعلمي أني سأكون أسعد أب فى العالم وأنت تتأبطين ذراعي لتكملين الطريق مع زوجك..ستنهمر دموعي ككل أب يودع مدللته الصغيرة وسأعوض ما فات من عمرينا فى أولادك فأراهم يكبرون ويتحولون من الطفولة الى الصبا فالشباب كأني أراكِ أنت.

ـ ولدى الحبيب ابراهيم ..أنا قادم اليك لأروى لك قصتي مع الدنيا ..أول هدف أحرزته فى ملعب الكرة.. أول سيجارة تذوقتها ..أول قضية أتحمس للهتاف لها.. أول فتاة أحببتها ..لم تكن أمك بالمناسبة ولكن ابق الأمر سراً بيننا..أنا قادم اليك يا ولدي.

ـ حبيبي الصغير سآتي وأروي لك حكايات أبطال حقيقيين لا أشراراً ..ربما لم ينقذوا العالم ولكنهم أنقذوا أنفسهم من احباطات كثيرة واجهتهم فى الحياة..

ـ صديقي القديم حضّر طاولتك ونردك ستعود الأيام الخوالي.

ـ أمي.. كم افتقدك..أتيت لك بكل ما تحبين واذا وزنت حقيبتك وحقيبة زوجتي فستجدينهما متساويتين .. جهزي الميزان ..أنا قادم يا أحبائي ..ماذا؟ ماذا يا أمي؟ نعم أحضرت لك فستانا لامعا مطرزا عند الصدر والذراعين..ستنافسين العروس يا أمي (**يضحك ثم يستمع باهتمام**) ها؟ غطاء رأس فضي اللون؟ ليتناسب مع حقيبة يدك؟ آه هذا ما نسيته ..معك حق كيف لي أن أنسى سؤالك عن لون حقيبتك وحذائك يا لذاكرتي الخربة .. لا يا أمي .. لدي وقت لآتي لك بغطاء رأس فضي يتناسب مع الحقيبة والحذاء..دمت لي يا أمي ..الى اللقاء.

يغلق الهاتف وينظر الى الجمهور:

ـ عليّ أن أذهب الآن ..في مهمتي الأخيرة قبل الرحيل.. غطاء الرأس الفضي ..إنه وقت الفرح ..لن أفكر بسواه.. ريثما يمتلئ نصف الكوب الفارغ قريبا ..هيا يا حقائبي

يسير بنشاط وتعجل باتجاه يمين المسرح كأنما يسير الى نهاية الشارع جاراً وراءه حقائبه الست ....

النهاية

رسائل العاشق

محمد جميل خضر ـ الأردن

توضيح

العمل ليس من ثلاثة فصول، بل هو تواصلٌ أدائي فوق المنصة حتى نهايته؛ ولكن المحمول الجمالي والأخلاقي له قُسّم إلى ثلاثة عناوين، تتعلّق بثلاث رسائل: رسالة التسامح، ورسالة المعنى، ورسالة الحب.

شخصية العمل

عاشق. أما بقيّة التفاصيل فغير مهمّة، ربما كان في هذا النص صحافياً وقاصاً ومثقفاً، وربما كان في حكاية أخرى عامل بناء، أو مهندس ديكور، أو حلواني، أو موظف بريد، أو صاحب محل لبيع الملابس أو المواد التموينية، وربما كان سياسياً أو متخصصاً في الاقتصاد، أو لاعب كرة قدم، أو خطّاطاً، أو معلم بلاط أو دهان، أو أي شيء آخر.

الهيكل المكاني والسينوغرافي للأحداث

غرفة خاصة بالعاشق، مكان يخصّه ويضع فيه حاسوبه، ربما جزء من غرفة نومه، فيها بعض مفردات الأثاث؛ كرسي، مكتب عليه جهاز الحاسوب، سلة مهملات، بعض الكتب على منضدة أو على رفوف

مكتبة صغيرة، بعض الدروع التكريمية وشهادات التقدير موزّعة هنا وهناك.

أقراص مدمجة ملقاة بشكل عشوائي، قصاصات ورق، أوراق بيضاء توحي بأن العاشق ما يزال متمسكاً بالطريقة التقليدية للكتابة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بكتابة إبداعية وليس تغطية خبرية لجريدته، صحف ومجلات منثورة في مختلف أرجاء المكان، ملابس معلقة على حامل. العاشق يكره العتمة ويعشق النور ببعديه الجواني الوجداني، والخارجي المنثال من الشمس أو من القمر في ليلة بدره أو من وحدات إنارة قوية، ولهذا فإضاءة المنصة الرئيسية للأحداث ينبغي أن تكون ساطعة تقريباً، خصوصاً باتجاه وجهه المشع بحنطاوية فاتحة مطعّمة بحُمّرة جذابة.

وعلى يمين الجمهور شاشة كبيرة إطارها على شكل رسالة كأنها مصنوعة من ورق البردي، وهي تخص الرسالة الأولى من رسائل العرض: رسالة التسامح. وشاشة أخرى بالمواصفات نفسها في عمق المسرح، وهي تخص رسالة المعنى، وعلى يسار المسرح الشاشة الثالثة التي تخص رسالة الحب.

وكل مكان في نهاية المطاف هو مساحة تعبير ممكنة عن مكنونات العاشق، ومسرح ذكريات، أو فضاء وجد وعشق مقبل. ويمكن أن يقدم العاشق مرافعته التاريخية في الشارع، أو في مطعم أو حديقة عامة، أو في ملعب أو مقر خاص بمؤسسة ما، أو في صالة احتفالات أو نشاطات.. إلخ.

ملاحظة

يمكن أن تشكّل الشاشات الثلاث في فضاء المنصة، خياراً مُتاحاً أمام المخرج، ليستفيد منها بحسب رؤيته الإخراجية، وفي هذا السياق يمكن أن تعرض الشاشات مشاهد متحركة (مرئية مسموعة)، أو صوراً ثابتة، أو عبارات مكتوبة، أو تصبح جزءاً من ديكور العرض، أو منصات ضوء، وأي خيار آخر يراه المخرج مناسباً.

مقترح إخراجي

يمكن وضع ثلاثة ألواح خشبية أو من الكرتون المقوى أو ما شابه خارج صالة العرض على التوالي (لوح أمام الآخر) تشبه الشكل التقليدي القديم للرسائل، وفي منتصف كل لوح ثقب كبير يسمح بدخول شخصين فقط، بحيث يلج الراغبون حضور العرض من داخل تلك الثقوب (الرسائل)، اثنين اثنين.

النص

رسالة التسامح

(يجلس العاشق إلى مكتبه ويواصل كتابة رسالة إلكترونية قبل إرسالها من خلال عنوانه الإلكتروني، فيروز تصدح عبر جهاز حاسوبه بأغنية «ليل وأوضة منسية وسلّم داير من دار»، شاشة التسامح على يمين المسرح (يسار النظارة) تظهر للجمهور تفاصيل الرسالة أولا بأول وبخط واضح كبير، الوقت صباحاً، حيث يبدو أن العاشق يستغل خروج الزوجة والأولاد للعمل والمدارس، ليشرع بكتابة رسالته وسط تردد وحيرة حول أفضل صياغة لها:

> «حبيبتي بسمة»... **(يتوقف قليلا عن طباعة الرسالة ويسند ظهره للوراء قليلا)**، لا.. لا لا، ليس منطقياً أن أناديها حبيبتي بعد كل الذي جرى وكان. «بسّومتي»... **(يعود للوراء مراجعاً نفسه)**، لا ليست هذه الكلمة المناسبة هنا، فالوقت مبكر جداً على السماح لنفسي بإعادتها لي ووضع الضمير المتصل (ياء) الذي يعود عليّ..

(وأثناء طباعة الرسالة ومراجعته لنفسه حول أفضل استهلال لها، يظل العاشق في الزاوية اليمنى من المنصة (اليسرى بالنسبة للجمهور)

وتكون المساحة المرئية منه ومن ملامحه غير كاملة الوضوح، فهو خلف المكتب وأمامه جهاز الحاسوب، وتفكيره مضطرب قليلاً فالرسالة من أساسها فكرة مجنونة عنّ على باله كتابتها بعد كل الخراب وطول الغياب)

«بسّومة»... **(تبدو عليه ملامح الرضا)**، آه نعم بسومة كما أشعتُ اسمها بين الناس جميعهم، وكما دلّعها الأصدقاء والمعارف من تدليعي أنا لها، **(يعود بعدها لمواصلة الرسالة كدفقة واحدة، يتقاطع فيها صوته (ربما هنا أفضل أن يكون مسجلاً) يقرأ جملها مع كتابة تلك الجمل على الشاشة)**:

«بسّومة

أريدك أن تعرفي وتعلمي وتوقني

بما لا يبقي مكاناً لشكٍ

أنّ قلبي وروحي

وكلّي سامحتك

سامحتك لأني لا أملك خياراً آخر

لأني لا يمكن إلا أن أسامحك

لأني... أحبك

حاولت غير ذلك

حاولت أن أنسى
لكني أخفقت
فالنسيان تاه مني تركني وحيداً حزيناً ضائعاً إلى أبعد الحدود
أعرف أن المنطق يقول إن كل ما كان بيننا انتهى
وأعرف أن وقوفك إلى جواري وأنا ماثل أمام قاضٍ حكمني وأمر بسجني
بعد إصرارك على الشكوى يعني أن كل شيء انتهى
ولكن شيئاً في أعماق قلبي يقول غير ذلك
شيئاً ما يخون كرامتي وقيافتي وأصدقائي
وكلَّ منطق درج عليه الناس
صحيحٌ أني لم أكن أستحق منك كل هذه القسوة
وأنا لم أفعل شيئاً سوى الانقياد لدافع الحب
اتصلتُ بأشقائك عشرات المرات بسبب الحب
أتيتُ بيتك مدفوعاً بالحب
وبشوقٍ كوى أضلعي وحطّم كياني
ودمّر تماسكي
أتيت بيتك ليلاً لأني أحبك

لأني اشتقت إليك
وفشل كل الناس أن يعلموني ألا أشتاق
وكيف لا أشتاق؟ كيف؟
ليس مجرد كلام ما أبعثه إليك غير متأكد إن كنت ستقرئينه
وإن كان ما يزال فيك بعض من بسومة التي عرفتها وأحببتها
وعشت في رحاب حبها عشرات الأشهر ومئات الأيام
لست متأكداً من شيء
ولا واثقاً من معنى
ولكن معنى واحداً لا يغادرني
هو معنى أن يحب الإنسان ويسامح ويصفح ويحلم
أتعلمين بسّومتي **(وهنا يتردد العاشق مرة ثانية، وتتوقف الطباعة قليلاً، قبل أن يستأنف رسالته تاركاً لعواطفه نفسها أن تختار الكلمات وطريقة توصيفه للعاشقة)**
أنا عادة رجل قليل الأحلام، أنام ملء جفوني بلا أرق ولا أحلام ولكن من يوم خروجي من السجن
أحلامُ تصالحنا لا تفارقني

أحلامُ ارتباطنا

أحلامٌ حولك فيها صورتك البهية وجمالك الأخّاذ

وروعتك الاستثنائية وصوتك

الدافئ الرائع الوئيد

لا أدري لماذا اندفع كلانا لهذا السيناريو المروّع

لا أدري لماذا مثلاً لم نقرر أن نكون أصدقاء على سبيل المثال

أن يظل معنى ما عظيماً وقيّماً يجمعنا

أخبار الأولاد

مشكلات الحياة، تعب الأربعين، مسلسلات رمضان

أسعار الخضار

أعطال السيارات

هواء عمّان وصيفها الرمادي الكئيب

لماذا لم تشكّل هذه الموضوعات وغيرها دافعاً لشكلٍ ممكنٍ من التواصل؟؟؟

بسومتي

على بياض أنا لا أستطيع الاستغناء عنك

لأني أولاً أحبك حتى الموت وليس فقط حتى السجن

ولأن في أجوائك ما لا يمكن تعويضه
ولا نسيانه والمضي قدماً دون الالتفات إليه
والتوقف المتأمّل عنده
لديك ما يشعل القلب ناراً وذكريات وأحزاناً لا تموت
لديك ما يفهمه قلبي ويحبه قلبي ويحتاجه قلبي
لديك قلبي فاحمليه بعناية فائقة وعودي
فقط.. فقط.. فقط عودي بسّومتي
وابعثي شيئاً أي شيء حبيبتي ينعش أملاً لا يريد أن يموت»

(وفي اللحظة التي ينهي فيها العاشق رسالته، يتفجر صوته فجأة جهورياً واحتفالياً بليغ الدلالات)

أنا العاشق **(يقوم من مكانه موجهاً حديثه للجمهور ومتحركاً فعلا باتجاهه ويواصل مرافعته بصوت جهوري احتفالي مهيب)** أنا العاشق أنا، أنا رافض الانصياع لمنطق الهزيمة؛ الهزيمة في الحرب والهزيمة في الحب، **(يغيّر نبرته ويخفض صوته)** يفجعني أحياناً هذا التشابه العجيب بين المفردتين، وأتساءل كلما تذكرت أن أفعل ذلك: هل هو تشابه بمحض المصادفة؟!

(يعود لصوته المدوي) أنا عاشق ابتسامة الغفران على

وجوه الأمهات، عاشق حدبة الليل على تعب النهار، وشقشقة الفجر الملتفتة برفق نحو ليل كان، صال الناس فيه وجالوا، وانهمرت خلاله ملايين الأحلام، والصلوات والتبتلات والخطايا والوصايا. ليل ليس دائماً فسحة مناسبة للنوم، ولا مطباً ممكناً للأرق. ليل التحضيرات المأزومة لمشروع عنف جديد، وليل عناق عاشقيْن يتلحّفان الكفاف، ويستتران بالرضا، ويهدهدان روحيهما بأمل دائم التجدد. أنا عاشق الليل ومواويل الليل وأغنياته وهمساته ومؤامراته الصغيرة الكفيلة بتلصص ابن الجيران على الصبية المطلّة بفرح على محاولاته المثابرة. أنا عاشق ليل عمّان، وسهرات العود في بيوت أصدقائي في جبل اللويبدة، خاوية من البذخ ولكنها ممتلئة بالحب والفن والجمال والبهاء **(يرن جرس هاتفه الخلوي)**.

ـ مساء الخير أبو النصر، **(صمت استماع للطرف الآخر)** والله إنك ابن حلال، **(صمت)** كنت سأتصل بك للتو، **(صمت)** أنت دائماً في البال وليس مثلك تتصل فقط عندما يكون لديك خبر ترغب بنشره في الجريدة **(صمت مع ضحكة اعتذار على الفكرة السابقة)**. طيب سآتي، ماذا؟ السهرة كالعادة ذكورية بامتياز، ولا مجال

لاصطحاب الصديقات؟! طيب يا أخي طيب.

(**كمن يحدث نفسه**) كم أعشق هذه السهرات، أداري بها رتابة الأيام، وأنسى إيقاعها الرمادي الكئيب. ولكن لماذا معظم سهرات عمّان ذكورية بامتياز؟

(أصوات ضرب، وصراخ وشتائم، وأصوات عنف متزامنة مع أصوات أبواق سيارات الشرطة، يظل خلالها العاشق واقفاً بثبات وهدوء أمام الجمهور، ويطلع صوته المدوي بالحب من قلب الضجيج والعنف)

أعرف أني لم أكن أستحق منك كل هذه القسوة، ولكني أعرف الآن أني أستطيع أن أسامحك، فأنا العاشق المتسامح الطيب الوديع القنوع الرضي الذي تدعو لي عقب كل صلاة أمي. نعم أمي التي تصطفيني من بين شقيقاتي وأشقائي، دون أن أفهم لماذا تخصّني بكل هذا الحب والحدب، إلى القدر الذي يحرّك أحياناً منابع الغيرة عندهم. (**وبصوت وديع ولهجة خاشعة**) بالله عليك يا أمي لا تخبئي صحن الطعام لي، لا توغري قلوبهم عليّ، سأحبك دائماً، وأطيعك دائماً، دون مقابل. أعرف أني لم أفعل دائماً ما يرضيك، وأعرف أن بيننا مسافات من اختلاف القناعات والأولويات، ولكن هل يمكن أن تسامحيني يا أمي، وتغفري قلقي واضطراب روحي

وتعثر مسيرة دربي. يا أمي الصلبة القوية العظيمة الدافئة القاسية الرؤوفة الحنونة المثقلة بالهجرات والرحيل الذي يلد الرحيل (**بالتقاطع مع هذا الاسترسال عند العاشق، تعرض الشاشات الثلاث صور هجرات ورحيل دون اشتراط أن تكون تلك المشاهد مرتبطة بشتات الشعب الفلسطيني وهجراته الكثيرات**). يا أمّ المعاناة الطويلة في صعيديها العام والخاص. (**يغيّر العاشق نبرته ويتوجه بالحديث إلى حبيبته**)

ـ أتذكرين حبيبتي لقاءنا الأول؟

(يتقمص صوت حبيبته وبعض شخصيتها ويمكن هنا تقريب صورة المعشوقة بباروكة شعر ناعم مشع بلون ذهبي آسر)

ـ هل تذكر أنت؟

(يعود إلى شخصيته)

ـ تفاجأتِ بداية أني أملك سيارة فارهة، ثم تفاجأتِ أنني ممن يستمعون لأم كلثوم بعدما أدرتُ كاسيت أغنية «ذكريات».

ـ وقلتِ لي بعد ذلك أنكِ خشيت وأنا أنتظرك في المكان الذي تواعدنا عنده أن لا تعرفيني، فالمرة الأولى التي رأيتني فيها كنتِ مضطربة وقلقة على مصير ابنتك الدراسي..

ـ أما أنا فكنت مشغولاً بوضع وظيفي لم أكن بسببه متهيئاً لاستقبال أحد. حتى إني لم أتبين ملامحك ولا ملامح (لولو) بشكل عميق دقيق، ولم انتبه لما قالته في سياق تعريفها عن نفسها، واختلط عليّ اسم والدها الذي أكن له (رحمه الله) كل تقدير كروائي وقاص وكاتب سيناريو محلي وعربي مهم، مع اسم زميل لي يستثقل الزملاء دمه، وعلاقته مع الآخرين ليست في أحسن أحوالها.

ـ لفت انتباهكِ ومنذ أول مرة رأيتني فيها ثوريتي التلقائية وصراحتي الصادقة.

ـ وأنا لفت انتباهي صوتكِ الجميل وحفظكِ لمعظم الأغاني التي غنيناها معاً في بيت الصديق الذي احتضن لقاءنا الأول.

ـ وأتذكر أنك بحتِ لي بعد ذلك أنك لم تكوني تتوقعي وجود مثل هذه الأجواء في عمّان، عود وسهر وطرب وأناس قادرون على اجتراح الفرح بأقل التكاليف، وفي قلب أكثر الظروف الموضوعية والذاتية قتامة.

ـ بعد تعرفي بك صرتُ أرى الحياة أحلى، وأنتِ كما كشفت لي أكثر من مرة صرتِ ترين عمّان بعين جديدة والحياة وكل شيء أحلى.

(يعود لمرافعته الموجهة للجمهور)

أنا العاشق الذي صدحتُ لها مرة بمقولتي «في الحياة تتحقق معجزة الحب مرة واحدة، وفي الحب تتحقق معجزة الحياة دائماً».

وفي شوارع عمان، وحاناتها، ومقاهيها، وحدائقها، وأزقتها، وبيوت الأصدقاء فيها، وفي مكانٍ أثيرٍ مطلٍ على بساتين كرز وزيتون أصبح مكاناً لنا لأنه قريبٌ من بيتها، وحتى في بيتها، كبر الحب، ونما بسرعة خارقة، اجتازت الحدود والتابوهات جميعها، وتحدى الأعراف، حب اختار النهار له ساحة، كما الليل ملاذاً، فكان انكشاف أمره سريعاً ومروعاً.. وما لبثت أن تحولت المسرات واللحظات الجميلة في عمّان ووادي رم ودمشق وبيروت، إلى حمل ثقيل، وإلى أسرار ومطبات نكاد ننكرها ونتنكّر لها.

وأصبحت أغنيات «صباح الخير يا عمان» و «أنا بانتظارك ملّيت» و «بعيد عنك» أشياء كأنها من ماضٍ بعيدٍ، لا تشبهنا ولا نشبهها.

وتغيرتِ، وقلتِ لي تغيرتَ، وربما تغيرنا كلانا، وهاجمتك الشقيقات قبل الأشقاء، وبعدما كنت دلولة العائلة وآخر عنقودها الحلوة الذكية اللمّاحة، أصبحت

جالبة العار، وصانعة الدمار في بيوت العائلات، ووسط تراكمات لم ألحظها جميعها، وانهيار منظومتك القيمية كلها، توالت السقطات، التي ختمتِها باستدعاء الأمن لي عندما أتيت بيتك مدفوعاً بالحب وبشوق كوى أضلعي، وبرغبة جامحة أن أفعل الصواب معك وأنتصر لك، وأحميك، حتى لو تطلب الأمر أن نتزوج، وأرضخ أخيراً لما لم أر فيه وجاهة، وهو ما رددته على مسامعك عشرات المرات:

ـ أنا رجل متزوج منذ ثمانية عشر عاماً، وأنت وحتى وفاة زوجك بقيت متزوجة عشرين عاماً، ولا أرى حاجة لأن نتزوج، وهو لا يشكّل باعتقادي إضافة نوعية لكلينا!!

هكذا كنتُ أرى الأشياء، وهكذا بقيتُ أراها حتى خراب (مالطا)، وخرابها (بسّومتي) جاء على يديك أنت وليس على يد أحد سواك، ولكني رغم كل هذا وذاك سامحتك، سامحتك يا حبيبتي وزوجتي الآن وصانعة فرح الأيام المقبلة.. سامحتك وسأسامحك دائماً لأني واثق أنك لم تكوني أنت التي وقفت أمام القاضي الذي حكمني، ولم تكوني أنت التي انهارت منظومتها الأخلاقية بسبب ضغوطات الأهل وإدانتهم، وفضائح الزوجة المجروحة بمغامرات زوجها، زوجتي التي

لم تترك وسيلة لإقصائك إلا وتبنتها، بغض النظر عن مشروعية تلك الوسيلة أو عدم مشروعيتها، دون أن تدري أنها بتغوّلها هذا وفجور طريقتها بالدفاع عن بيتها، إنما كانت ترفع مدماكاً آخر في مداميك عودتي وغفراني وتسامحي!!

رسالة المعنى

(يعود العاشق إلى مكتبه ويشرع بكتابة رسالة المعنى التي تبدأ تفاصيلها بالظهور على الشاشة المعلقة وسط المسرح، وكما في رسالة التسامح يتزامن ظهور تفاصيل الرسالة على الشاشة مع صوت العاشق مسجلاً يقرأ ما تكتبه يداه)

«أبنائي الأحباء عمر ومريم ودورا وصهيب أسعد الله أوقاتكم جميعها...

إن تكرمتم ونظرتم من أي نافذة من نوافذ بيتنا، فسوف تطالعكم شمس من كل الجهات، شمس يتدفق شعاعها بوضوح لا لبس فيه، وأوراق شجر تداعب بخدر عيونكم الجميلة والمشعة بآمال غد عظيم...

وهكذا الأمر دواليك منذ آلاف السنين، وهكذا هو الناموس الكوني الفذ، وفي المساحة النبيلة بين سنن الحياة وأفيائها، وبين القدرة الإنسانية الخلاقة على تأمّل تلك السنن وهذه النواميس، يتحقق الفعل بمختلف تجلّياته وأنوائه وأخطائه وجمالياته.. وإن كان فعل الناموس ينطلق من جوهر لا إرادي، فإن ميزة الفعل

الإنساني باستثناء أفعال الغريزة (كالتنفس وضربات القلب وغيرها) وأفعال المشيئة المسيّرة (كاللون أو ساعة الأجل أو مكانه)، إنه ينعم بمساحة اختيار حرة، ويتقلب الإنسان طويلاً في بعض الأحيان بين القيام به أو الإحجام عنه.

وعند الاختيار، تدخل آلاف الحسابات، وتتصارع آلاف الاعتبارات، وليس بعيداً عن كل ذاك، فإنكم ستظلون دائماً خياري النهائي، وسيظل التمسك بكم، مما لا يندرج في مساحة الاختيار، لأنه ينطوي قبل أي شيء على واجب أخلاقي قانوني مبين، وهكذا تضعنا الحياة في لحظة تاريخية أمام أقدارنا، فالأولاد قدر أبيهم والآباء قدر أبنائهم. وأنتم تحديداً أيها العظام الرائعون، قدري الجميل الحميم الدافئ الذي أعانقه بمهجة القلب وخلايا العقل جميعها، وأنتم خلاصة روحي وسوسنة دربي.

وإذ أُقْدِمُ على ما أنا مقدم عليه، فلأن القدر لا يتوقف عند إحداثية بعينها، ولأنه لا يحمل لنا في كل مرة تفسيراً منطقياً بيّناً لتقلباته وتعاريجه وأسراره ولا محدودية مسعاه. ولكن ما يطمْئِنُ قلبي ويهدهد أنّات ضميري أني في خطوتي المقبلة لن أترك بيتنا، ولن أغيب بأي

معنى للغياب، ولأني من حيث المبتدأ أُقْدِمُ على فعل حب وتسامح عظيم، أحتضن فيه أولادي قبل أي أحد، وأمنحهم معنى يتطلع قدماً نحو آفاق مستقبل سيكون لكم فيه الظفر، وتزرعون عندما تبلغون معارج الإدراك والتفهم ومعرفة كنه الأشياء وحقيقتها، على خد والدكم المنتظر بحب وسعة صدر وعطف وحنان، قبلات الرضا، وتعانقونه عناق الأمل بغد مشرق لن يتأخر كثيراً فهذا وعدي وواجبي. محبتي وتحياتي وانحيازي النهائي لكم»

(يقوم العاشق من مكانه ويصدح بالعشق ثانية)

أنا العاشق، عاشق أولاده وما اقترفت يداه، عاشق المعنى الثاوي داخل فكرة الأب والابن والبنت، عاشق قداسة الوشيجة بين هؤلاء، وديمومتها، وطهارتها.. أنا عاشق الصغيرة تشد لحيتي، بينما الصغير يركب ظهري لأقوده نحو نصر على الأعداء.. عاشق لعبة «جمّال ابن جمّال الغُرُب سرقولك جمالك/ سيفي تحت راسي ما بسمع كلامك» كنت ألاعبها لأولادي صغاراً، ويسرق الأولاد فعلاً الصغير آخر العنقود، وأبدأ رحلة بحث عنه بعد أن أستيقظ من نومتي وركوني إلى سيفي الخشبي المخبأ تحت الفِراش، وأجوب غرف البيت جميعها بحثاً

عنه، وهم يتراكضون حولي (**يبدأ بتمثيل اللعبة فيستلقي ويعيد ترديد لازمة اللعبة)**

«جمّال ابن جمّال الغُرُب سرقولك جمالك/ سيفي تحت راسي ما بسمع كلامك»، (**يقوم وهو ما يزال يردد تلك اللازمة، ويبدأ بالدوران، إلى أن يجد الصغير كما يبدو من حركته ويحمله مع صرخة ظفر مرحة طفولية ويعانقه ويشرع بما يشبه البكاء عناق أولاده المفترضين)**.

أنا العاشق الذي لم يبخل على أولاده بمشوار، برحلة، بعرض مسرحي، بأمسية غنائية، بسبعة أنواع من الجبن كما تتهمني أمي، أنا الذي يموت لكي يسعدوا، ويموت لكي يسعدوا، ويموت لكي يسعدوا، ويظل يموت إن كان في موته أي سعادة لهم...

أنا أصغرهم براءة، وأكثرهم شقاء، لم أشأ إتعاسهم بما عقدت العزم عليه، ولكنها الأقدار التي حاولتُ مراراً تجنبها، وابتعدت عن حبيبتي مرة.. مرتين.. ثماني مرات دون جدوى ودون معنى، فالمعنى كان بأن أنصف روحي وقلبي دون أن أظلم الأولاد.

رسالة الحب

(تضطرب أفعال العاشق ويتحوّل صوته إلى حشرجة بكاء ويتيه فوق المنصة متنقلا بين شاشاتها الثلاث)

سأظل أنادي حروف اسمك المقدس، وأهتف بها على أبواب كل شتاء مُحَمَّل بالوعد. **(يذرع منصة المسرح من أولها إلى آخرها)**

سأظل أنادي وجهك المختبىء خلف عتمة الطريق، أبحث عنك في غابة نصبها المخرج سريعاً في زاوية من زوايا الخشبة، داخل نداوة عشب منصوب على حيطان المسرح، فأنا بسومتي هاجت أشواقي وماجت. **(ينزل عن المنصة ويدور بين مقاعد النظارة ويقلّب وجوه الجمهور المتسمّر فوق كَراسٍ قابلة للزوال، يحدّق كثيراً في وجهٍ ملائكيٍّ لسيدة ملأ الحزن ملامحها)**

ـ هل أنت صاحبة الحروف المقدسة والظل الطويل؟

ـ هل أنت من أهتف اسمها عالياً عالياً أعلى من اليقين؟!؟

(يجلس العاشق على مقعد فارغ متقمصاً دور المرأة التي سألها ويحرّك رأسه بالنفي) ليست أنت فأينها إذن **(يقوم العاشق بحركة توحي بالإنصات إلى أحدهم ويعيد سؤالا مفترضاً وجّهه له أحد الجالسين المشاكسين كاسراً دائرة الصمت)**

ماذا تقول يا صاحب الأسئلة القاسية: كيف أعشقها كل هذا العشق ولا أتذكر شكلها؟!

(يرفع العاشق قنديلاً بين يديه التقطه من مكانٍ ما فوق المنصة قبل نزوله باتجاه مقاعد النظارة، يوجّه القنديل نحو صاحب السؤال)

ـ أنا يا سيدي لا أبحث عن ملامح وتفاصيل قد تتغير بتغير الزمان والمكان والظروف، أبحث يا صاحب السؤال عن جوهر لا يموت، عن قيمة لا تتغير، عن أبنوسة تضيء عتم هذا الليل، عن أغنية تفجّر سر الوجود، عن جولة في حدائق النور، عن خمرة لا تضر الشاربين، عن أنين ناي يبقى بعد أن يفنى الوجود، عن معنى وفرح وجمال بلا حدود، أبحث عن ضمير الناس ولحظةٍ من تطهّرِهم لو جاءت لَكَفَتْ وصنعت في عالمهم معجزات...

أبحث عن وميض عظيم لو أشرق ذات صباح جديد فلن تعود الدنيا هي الدنيا ولا الأحفاد هم الأحفاد، لو

لَمَعَ مثل وعدٍ صادحٍ بالحب فسوف يعم السلام وترفرف
العصافير بحرية قصوى...

(يعود العاشق لمكان صاحب السؤال ويصفق، وبعد تصاعد التصفيق تدريجياً، ويفضّل هنا أن يكون صوت التصفيق مسجلاً، تبدأ أصوات أياد أخرى وقد استجابت لتصفيق الرجل وتفاعلت معه بالتصفيق هي الأخرى وما هي سوى لحظات حتى يدوي صوت التصفيق المسجّل وكأنه قادم من جهة الجمهور جميعه، بحيث يتصاحب ذلك مع مشهد مصوّر على الشاشات الثلاث لمجاميع تخرج من قاعة مسرح وهي تهتف باسم الحب وترفع أياديها تمسكاً به وبقيمه الباقية. ثم مشهد آخر لهم وقد تجمهروا بالمئات وسط البلد وجابوا الشوارع كلها. ويتصاحب ذلك أيضاً مع صوت العاشق ويكون قد عاد إلى المنصة وبدأ يقص المشاهد المعروضة على الشاشات وكأنها قصة حدثت معه)

... خرج الناس من القاعة يهتفون باسم الحب،
وواصلوا الهتاف حتى بعد خروجهم من المسرح، جابوا
الشوارع كلها، وظلوا في مسيرتهم المدهشة يزدادون،
وعندما وصلت المسيرة قاع المدينة، كان فيها خلق كثير
وجاء العشّاق من كل حدب وصوب، عواجيز يتكئون
على الرضا، صبايا بعمر الورد، شباب اكتشفوا فجأة
أن مشاكساتهم ما هي إلا قناع تختبئ خلفه عواطفهم
الجياشة، سيدات البيوت المحتشمة، رجال التلصص

على الجارات، جميعهم شعروا بما ظلوا يجهلونه طوال حياتهم داخل أعماقهم المكبوتة، عواطف مدفونة فجّرها رجل المسرح دون سابق إنذار، أُخِذَ في أيدي رجال الأمن، رفعوا قبعاتهم احتراما لمسيرة الحب والحياة والمسرات.

أنا العاشق، تلك الأنا الكبرى، التي درسونا إياها في حصص النقد الأدبي أيام المرحلة الثانوية، تلك الأنا المعذّبة المشتّتة بين وطن ضائع، وعيش كادح، ورغبات مشروخة، التائهة بين خيارات حلوها مر، فلا هي أنا أنانية خالصة في انحيازها للنفس والذات، ولا هي أنا عامة مخلصة في فنائها من أجل الآخرين، أنا بيْن بيْن، أنا ابن أمي، أنا أبي، يحيطه الرضا مثل قدر غاشم، **(مع تخفيض واضح للصوت ونبرة الكلام)**.. أبي الذي اشترى خمسينيات القرن الماضي طقم أسنان بالمبلغ نفسه الذي اشترى فيه خالي عند حدود السيل قريباً من وادي الحدّادة في عمان بيتاً وحاكورة وأرضاً ممتدة.

أنا العاشق، عاشق البحر الذي شاءت أقدارنا أن يكون حظنا منه الكفاف، وأن يكون في حالتنا ميْت**!!** عاشق السماء ونجومها، الطريق وصروفها... **(وبما يشبه ترنيم أغنية نجاة)** أنا بعشق البحر اللي زيّك حنون **(يطلع من**

بعيد صوت نجاة نفسها بالأغنية... أنا بعشأ البحر... ويبدأ العاشق بالأثناء تأدية رقصة ناعمة وئيدة بحس شاعري رومانسي شفيف، ويشّكل بيديه حركة توحي بأنه يراقص المعشوقة ويتحرك دائرياً حول نفسه موسّعاً الدائرة رويداً رويداً ومقترباً قدر المستطاع من الجمهور، ومع تضاؤل صوت الغناء وتباعده تدريجياً، يقف العاشق منتصباً ومتخذاً مظهر وقار صوفي رومانسي مع صعود صوت قصيدة عزيزة جلال «يوم كنا مثل عصفورين نلهو ونطير/ نتلاقى في ظلال الروض أو عند الغدير/ ونعيش الشوق والأفراح والحب الكبير/ أين ما كنا نغني وكما شئنا يصير» يردد العاشق آخر مقطع من القصيدة ويبدأ برسم صورة الحب):

القارب في البحيرة، السفينة في البحر، الباخرة في المحيط، النوارس على موعدها، الضفاف ناعسة عابثة خائفة، الليل ليس طويلاً بما يكفي لكي يحلم العشاق ويسهرون ويغنون ويسمرون، النهر لا يعرف التكرار، النوبة مضبوطة المواعيد، الكمان يغني والعود والقانون **(يمكن هنا تزامن هذه العبارات مع صوت خاص بكل آلة موسيقية ورد ذكرها بدرجة صوت خفيضة لا تؤثر على صوت العاشق)**، المغني صامت يستمع بجلال

ويستمتع بمعزوفة الوَلَهِ المسربل بالنور، الليل، وعشّاقه ومواويله، الفجر يطرق الأبواب (**صوت أغنية يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما/ ليس بعد الليل إلا مجد فجر يتسامى، بعدها يعود العاشق لترديد مقاطع قصيدة يوم كنا مثل عصفورين، ثم يبدأ بالدوران حول نفسه وينادي**):

تعالي حبيبتي، تعالي (**يتوجه نحو الجمهور**) تعالي حبيبتي، أينك تعالي (**يمد يديه بتوسل ورغبة مجنونة بعناق الحبيبة لمرة واحدة وإلى الأبد، وفجأة تصعد الحبيبة المتخيلة يعانق العاشق معناها ووجودها المتحقق في وجدانه.. يعانق طيفها وحفيف شجرها وارف الظلال. ينتهي العرض فيما العاشق يعانق الحب والمعنى والتسامح**).

التأشيرة

كمال خلادي ـ المغرب

(غرفة نظيفة بقليل من الأثاث، سرير توجد بحواشيه بعض الأدراج، طاولة قصيرة عليها تلفاز، هاتف مركون في زاوية، على الحائط صورة بالأبيض والأسود لزوجين بثياب العرس... نشتم رائحة نفتالين مختلطة بمعطر للجو، امرأة تجلس على كرسي متحرك تشاهد التلفاز، يبدو أنها تستمتع بما تشاهده، بعد قليل تحرك الكرسي باتجاه الهاتف، تطلب رقما، تتكلم)

أين قررتم تناول العشاء؟ إنه مطعم رائق... سيكون ممتعا أكثر لو حصلتم على تلك الطاولة القريبة من عازف البيانو، رائع جدا! هل هو نفسه المغني الأسود؟ كم الساعة الآن؟ لكن لا تنصرفا قبل الساعة الحادية عشرة، سيغني «يا له من عالم جميل»[1]، نعم، سيغنيها على ضوء الشموع فقط، إياك أن تفلت الفرصة، لم أسمع أبدا صوتا أعذب من صوته، أتدري؟ من أجل تلك الأغنية صرت أعشق كل ما هو أسود (تضحك) سأدعك الآن، استمتعا بوقتكما.

(1) أغنية What a wonderful world لـ «لويس أرمسترونغ»

(تضع السماعة بهدوء، لا زالت ملامح ابتسامة ترتسم على شفاهها)

إنه ابني، خرج للعشاء رفقة زوجته، لقد تزوجا حديثا، قبل شهر تحديدا، حالت بعض الظروف دون أن يستمتعا ببعضهما خلال هذه المدة، لكن الأمور تتحسن الآن، وستتحسن أكثر، أنا متأكدة، هناك دائما باب يفضي إلى الأشياء الجميلة، قد نخطئه أحيانا لكننا حتما ننتهي إليه، المهم ألا نمل...

لقد استغرب كوني أعرف المطعم جيدا رغم أنه يقع في زاوية ضيقة قريبة إلى الإظلام، لا يعرف أن أباه كانت تستهويه تلك الأماكن الهامشية والمهملة، كان يكره تلك المحلات التي غزتها أضواء النيون...

الأذواق عدوى خطيرة، في وقت قصير صرت مثله لا أستحمل البوابات الزجاجية والأماكن المفرطة في النظافة، أصبح حيادها يضايقني، يوما بعد يوم كنت أفهم كيف يمكن للمكان أن يكون باردا ومفتقدا للنداوة، أتذكر أننا كنا نتسكع كثيرا ولا نحس أنفسنا إلا ونحن نقف دون قصد تحت عامود كهرباء فقد مصباحه أو كرسي حديقة أعرج... كنا نضحك لهذا ونستمتع بأننا نلتفت لأشياء لا يلتفت إليها الآخرون، كنا مطمئنين إلى أن المدينة وهبتنا قلبها...في ذلك الوقت كان هذا كافيا

لإشباع غرور زوجين شابين... لقد تذكرت شيئا...

(تدفع الكرسي بخفة نحو الهاتف، تركب رقما، يبدو أنها تكلم أحدا ما)

هل أقاطع شيئا؟ جيد، لدي اقتراح، اسمع، عندما تخرج من المطعم، ماذا تجد قبالتك؟ نعم، وبعد الشارع الطويل، إذا انعطفت يمينا ماذا ستصادف؟ لا، لا دعك من مجلتي الآن، لم أتمم قراءة العدد السابق بعد... نعم وماذا تريد أكثر من قاعة السينما، حسبتك لماحا، ليس هناك أجمل من أن تختما سهرتكما بمشاهدة فيلم سويا، لا، لا تهتم أنا بخير، منذ لحظة فقط كنت أستمتع بمشاهدة الفأر «جيري» والقط «توم»[2]، أقسم أنني بخير، اسمع لا تكن مأساويا، اليوم الخميس، هناك برمجة جديدة... أحيانا لا يهم ما نشاهده بقدر ما يهم أننا نقوم بشيء نحبه مع شخص نحبه، لا تنسَ أن ما نتذكره فعلا هو ما حصل أخيرا، ماذا تجدي سهرة جميلة بنهاية روتينية، قلت ليس لك من خيار.... أقسم أنك لو عدت الآن إلى المنزل لن أفتح لك باب الغرفة، اذهب وابتهج مع زوجتك، سأنتظر رجوعكما لتحدثاني عن الفيلم...

(2) السلسلة الكرتونية الشهيرة Tom & Jerry

(تضع السماعة)

الأحمق، لا يعرف أننا عندما نحب الحياة نذهب إلى السينما... وددت لو قلت له إن تلك القاعة احتضنت أول موعد لي مع أبيه، وددت لو قلت له إن أباه سرق مني أول قبلة إبان فسحة ظلام جادت علينا بها مجريات فيلم لم أعد أتذكر أحداثه من فرط الارتباك الذي ركبني بعدما سقطت أنفاسه فجأة على خدي... من يدري؟ لو يجلسان على نفس المقاعد، لو يقتربان كما كنا نقترب، لو يعرف كيف ينسى رصانته لبعض الوقت.... يا إلهي كم كان جميلا ذلك اليوم الأول، جاءني وسيما جدا، لم أصدق أنه نفس الرجل الذي كان يظهر لي مغبرا وراء الكتب القديمة، كانت تلك أول مرة أشاهده واقفا بطول قامته أمامي، قبل ذلك كنت لا أراه إلا من وراء ذلك الكونطوار الخشبي، كنا نتبادل كلمات قليلة، أسأله عن عنوان كتاب ما، يدمدم ببعض الكلام الذي لا يحسم في وجود الكتاب من عدمه، قبل أن يختفي في الداخل ليعود وهو ينفض الغبار عن الكتاب، عن قصد ربما كان يقرب الكتاب من أنفه، في إحدى المرات وبعدما بدأت زيارتي له تتكرر نبهته إلى خطورة رطوبة الكتب على الجيوب الأنفية، ابتسم وقال لي: للكتب رائحتها،

رائحة الكتب هي ما يحدد ثمنها...

(صمت)

الأحمق لا يقدر ماذا يمكن أن تعنيه أمسية تشاهد فيها فيلما مع من تحب... شباب غفل... ربما كان علي أن أقول له إنني، عندما زرت أباه بعد ثلاثة أيام من ذهابنا إلى السينما وجدته قد أدخل تعديلات على الكونطوار الخشبي بحيث أمكنني الدخول، كان علي أن أقول له كم صرت واثقة بعد ذلك!

(يرن الهاتف، تدفع الكرسي نحوه، تتلقف السماعة)

أهلا يوسف، عذرا عذرا دكتور ظننت أن ابني من يتصل ليقول لي إنه أقتطع تذاكر السينما... نعم لقد أقنعته بذلك، أنت تعرف أنهما مرا بأوقات عصيبة... أنا بخير، الحمد لله، لا أدري كيف تناسى الأمر، عذرا لقد تذكرت، لقد قلت له بأنني سأتولى أمر الاتصال بك، المعذرة مجددا، نعم هناك خبر جديد، أتمنى أن يكون كذلك، هذا الصباح تكلم ابني مع مشغله الفرنسي، قال له بعدما استعلم لدى السفارة إن الأمر يتعلق بخطأ بسيط وأنهم سيستدعوننا لختم التأشيرة، نعم، لقد أكد له أن مسألة الرفض ناتجة عن خلط في الأسماء بيني و بين سيدة أخرى ... هذا تماما ما قاله، نعم يمكنك فعل

ذلك... قال إن الأمر سيتم في بحر هذا الأسبوع، سأعلمه بذلك، ليلة سعيدة، طبعا دكتور، شكراً لجهودك.

(تضع السماعة، يبدو عليها التوتر)

ما كان علي أن أرد، ما كان علي أن أرد... هناك أصوات تأتيك كما لو أنها قادمة من الجحيم... لا أفهم كيف يعطي لنفسه الحق في المهاتفة متى شاء، كيف يقتحم لحظة صفاء تمنيتها طويلا... كيف يثقب بالون الفرح الذي ظللت أنفخه طيلة هذا اليوم، إنه أغبى من أن يفهم أنني أستحق أن أنعم بليلة هادئة بعيدا عن حديث المستشفى والورم والتأشيرة والتحويلات المالية... ميكانيكي الجسم البشري لم يستطع الصبر حتى الصباح للاطمئنان على صفقته... لن يتصور أبدا كم جعلتني كلماته هشة وفارغة، أسئلته الباردة أعادتني لتلك اللحظة التي مد لي فيها ذلك الموظف الغبي جواز سفري بابتسامة صفراء وشفاه تتقيأ جملة مسكوكة [3] désolé، madame, on ne peux pas vous accordez un visa كان كحجر بل كان الحجر نفسه، لقد أمكن له أن يقول ما قاله بكل الحياد الواجب، لم يثره منظر جسدي المتكور

(3) عذرا سيدتي، لا يمكننا منحك التأشيرة.

فوق كرسي متحرك، لم يرتبك لمنظر ركبتي المتورمة ولا للون وجهي الأزرق المتقع كباذنجانة فاسدة désolé madame, on ne peux pas vous accordez un visa.

الآن أتساءل ما جدوى كل هذا التعب؟ الطبيب يقول إن هناك أملاً أي أمل؟ الورم الخبيث يهجم للمرة الثانية، المرة الثانية ثابتة لا شك، ابني يصدقه، لا يريد أن يفهم أن الأمر بالنسبة إلى ميكانيكي الأعضاء البشرية مجرد صفقة يجب أن تكتمل... زوجة ابني تغالب دمعها كل صباح وتحكي لي أحلام الشفاء... أبدا، أبدا لا يمكنني الوثوق، صارت للشك جحور في القلب...

لا يمكن للجسد أن يعيش خارج أمده، الجسد كما البطارية، أذكر لما كنت أدرس بالبادية البعيدة، لم يكن لدينا من مؤنس غير المذياع، أحيانا كانت بطاريته تجف في عز أيام المطر، ولم يكن بوسعنا الخروج لشراء أخرى جديدة، كنا نضغط البطارية بواسطة مطرقة أو أي شيء صلب ثم نعيدها إلى وضعها، يتحرك صوت المذياع بعد ذلك لكنه يعود للحشرجة بعد فترة قصيرة، كررنا ذلك ثلاث مرات قبل أن يتداعى المذياع بكامله...

الجسد كما البطارية، كما محرك السيارة، كما الهاتف النقال

ولا شيء غير هذا، عليك أن تتخلص منه مع أول أزمة وإلا فإنه سيتعبك لا محالة، جسدي لم يكن إلا كذبة، كذبة كبيرة، بين ليلة وضحاها تحول إلى قمامة...

آه لو أستطيع النوم ولو لساعة واحدة فقط، ركبتي تتفسخ ورائحة النفتالين هذه تخز القلب كإبر مسمومة، ذاكرتي تنزلق بإصرار لعين نحو كل ما هو مأساوي، الأغبياء لماذا لم يصنعوا حتى الآن دواء للنسيان؟ دواء تشربه فينسيك كل شيء، أي شيء، دواء تشربه فينسيك نفسك، حتما سيكون أجدى من كل ذلك العلقم الذي أتجرعه ليل نهار...

لا أريد أن أتذكر، الصور تترامى أمامي كمتاهة حقيقية، المستشفى اللعين الذي لا تهدأ الحركة فيه، أنين المرضى، عجرفة الأطباء، رائحة الطعام الأصفر الذي يبعث على القيء، الفراش النتن الذي تختلط فيه رائحة البول بالقيء بالرطوبة بالبراز، يد موظف الأمن بالسفارة الفرنسية تتحسس جسدي، صوته وهو يصرخ: Reculez, Reculez [4]...، اليد الرخامية تمد جواز السفر، الصوت غير البشري Désolé, on ne peux pas vous accordez un visa...

(4) إلى الوراء إلى الوراء!

«المرض ليس عيبا» يلفظها الناس ببلاهة ويدعونك للصبر، يدي ترتعد وهي تمضي ورقة التخلي عن ملكية البيت الذي عشت فيه أربعة وعشرين عاماً... آه... آه يا سي أحمد كم أعتذر منك، أعرف أنه ما كان علي أن أوافق على بيع البيت الذي دفعت حياتك ثمنا له، أعرف، لكنه عناد ابنك وإلحاحه المستميت ، أتدري ماذا قال لي لما عارضت فكرة بيع البيت، قال: لا أفعل إلا ما كان سيفعله أبي لو كان بيننا.

أحقا كنت ستفعل هذا يا سي أحمد؟ المعذرة، أعرف أنك لا تطيق هذه الأسئلة المتشككة، إنها تسحبنا سحبا عنيفا إلى الوراء، هذا ما كنت تقوله لي أليس كذلك؟ لكن كان عليك أن ترى ذلك الوثوق الذي غلف به لهجته وهو يقول إن حياة البشر أهم ألف مرة من حياة الحجر، حينها أحسست كما لو أنك تقف أمامي تلك الليلة التي قررت فيها بيع محل الكتب لتشتغل كسائق تابع لوكالة الأسفار السياحية، كلماتك زلزلت ماضيا جميلا أثثت تفاصيله في داخلي بعناية وحدق، كنت مصمما ولم يكن من داع لأعارضك... بعد صمت ثقيل فاض قلبك المثخن، قلت كلاما كثيرا، قلت إننا لا نعيش في زمن الكتب، ربما كان عليك أن تقول يومها إننا لا نعيش في

زمن السعادة يا سي أحمد، ما آلمني أنني حاولت أن أشرح لهم كيف أن الأمر لا يتعلق بالحجر، حاولت أن أفهمهم أن المنزل الذي يطلبون مني بيعه ليس حجرا فقط...

قلت لهم كل شيء يمكن أن يخطر ببالك، قلت لهم إنك سددت مبلغ التسبيق الأول من ثمن محل بيع الكتب الذي ورثته عن والدك، قلت لهم إنه من أجل تسديد باقي الأقساط اضطررت للعمل تحت إمرة ذلك الفرنسي الجشع، قلت لهم إنك جبت بعربتك كل جيوب هذا البلد تقل سياحا أجانب بعضهم لا يرمي لك حتى كلمة تحية أو شكر، قلت لهم أنك اضطررت مرارا لأن تفترش مقاعد سيارتك قبل أن تقف في الصباح تنتظر الزبائن أمام الأبواب الدوارة لفنادق الخمس نجوم... قلت لهم إنك دفعت القسط الأخير من دمك الذي تدفق على إسفلت الطريق تلك الليلة المشؤومة بتلك المدينة المشؤومة...

(تمسح بعضا من الدمع الذي بدأ يهرب من عينيها)

قلت لهم ما لم أقله لك... قلت لهم إنني دفعت ثمنا لذلك المنزل من حيرتي، من قلقي، من غيرتي، من أعصابي التي كانت تحترق كلما شاهدتك تضبط بذلتك مستعدا لسفر طويل، كنت أخشى عليك من أولئك السائحات

اللواتي يقدمن إلى هنا مستعدات لأن يفعلن كل شيء، كنت أخشى عليك من تنانيرهن القصيرة ومن بشرتهن البيضاء، كنت أخشى عليك من توقهن المحموم نحو سمرة وصلابة الرجال هنا....

لقد قلت لهم كل شيء، كل شيء يمكن أن يخطر ببالك، لكنهم ما كانوا ليفهموا ما كنت أقول، لقد أرهبهم الإحساس اليومي بالنهاية، دوختهم سرعة الانحدار وشدته...

(صمت)

هناك العديد من الأشياء قد تغيرت، لم يعد أمر الحياة سهلا كما كان من قبل، لقد بدلت جلدها على نحو قياسي يا سي أحمد...

(تغني)

«احك يا الراوي احك حكاية [5]

مدا بك تكون رواية

احك لي على ناس زمان

احك لي على ألف ليلة وليلة

وعلى لونجة بنت الغولة

(5) أغنية بعنوان «الراوي» للمغنية الجزائرية «سعاد ماسي».

وعلى وليد السلطان
حاجيتك ماجيتك
وادينا بعيد مدى الدنيا
حاجيتك ماجيتك
كل واحد منا فقلبو حكاية
كل واحد منا فقلبو حكاية
احك وانسى بـ اللي حنا كبار
فبالك بـ اللي راحنا صغار
ونكملو كل حكاية
احكينا على الجنة احكينا على النار
وعلى الطير اللي عمرو ما طار
فهمنا معنى الدنيا
حاجيتك ماجيتك
كل واحد منا فقلبو حكاية
كل واحد منا فقلبو حكاية
احك يا الراوي كيف ما حكاولك
ما تزيد ما تنقص من عندك
احك ونسينا من هاد الزمان

خلينا فـ كان يا ما كان

كان يا ما كان

حاجيتك ماجيتك

وادينا بعيد مدى الدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا فقلبو حكاية

كل واحد منا فقلبو حكاية»

كنت أريد أن أقول لك شيئا، لكن لا تغضب مني يا سي أحمد... أنا الآن أسكن غرفة بالطابق السفلي لبيت رجل غريب، في الحقيقة هو ليس كذلك، أنت تعرف أنه لا يمكن أن أقبل على نفسي وضعا شاذا كهذا، إنه أب زوجة ابننا، رجل كالسلحفاة لا تسمع له صوتا رغم أنه دائم التواجد بالبيت، قضى جل عمره في فرنسا كعامل مناجم قبل أن يعود ويقفل عليه باب غرفته، يبدو لي وكأنه مدمن كحول، لست متأكدة ، لقد قابلته مرة واحدة فقط لما جاء للترحيب بي في المنزل، لكن هذا ما أوحى إلي به وجهه الأحمر العريض ويده الدائمة الارتعاش، أتدري بمن ذكرني؟ بذلك الشخص الذي اصطحبته معك من المطار ومكث عندنا ثلاثة أيام، ذاك

الذي عاد هاربا من فرنسا بعدما أدخل زوجته الأجنبية المستشفى في حالة غيبوبة بضربة قوية أسقطتها من أعلى الدرج، كنت قد قلت لي بأنه وجدها في فراشه وسط رجلين... أف، كيف يمكن لامرأة أن تفعل هذا؟ لن أنسى أبدا صمت الرجل ووجومه، لن أنسى كيف ظل مصدوما وخائفا... ربما لهذا ذكرني بأبي ليلى، ليلى هي زوجة ابننا، فتاة جميلة وذكية جدا، تمتلك قلبا كبيرا وروحا مفتوحة، لو كتب لك أن تراها لأحببتها بكل تأكيد، أحيانا أرى أنها تنتمي لزمن آخر، ليست من النساء اللواتي لا يهمهن إلا امتلاك رجل كيفما كان السبيل إلى ذلك، يعجبني أنها تعرف تماما كيف تكون امرأة حقيقية، آه لو ترى منظرهما وهما يخرجان للعمل معا ويعودان في المساء معا ضاحكين رغم تعبهما، يمكن لنا أن نكون مطمئنين على ابننا، إنه بأيد أمينة... **(الساعة تدق)** هو وقت الدواء يا سي أحمد.

(تدفع الكرسي المتحرك باتجاه علب الدواء، تأخذ حبات متفرقة ومتنوعة الاستعمال)

أف لهذا الدواء، أحس وكأنه يثقب الأمعاء ثقبا، وهذه المسكنات لا تجدي شيئا، يظهر لي أنها تهيج الألم عوض أن تخمده... لقد تعبت يا سي أحمد، ماذا تنفع العقاقير

جسدا ينزلق نحو الموت بإصرار، وهل ينفع الدواء جثة آثرت الاستسلام؟ الورم الخبيث سكن القلب، لف أذرعه وأخضع آخر ثغور المقاومة...

نسيت أن أقول لك (**تبتسم قبل أن تفاجئها نوبة من الضحك**) معك حق يا سي أحمد، نحن لا نضحك إلا كي لا نبكي، كثرة الهم تنتزع الضحكة رغما عن أنفك...

لقد صرت إرهابية، هكذا قال الفرنسيون، «زهرة حجامي» امرأة خطيرة ممنوعة من دخول التراب الأوروبي، كان عليك أن ترى الوجه الحجري وهو بالكاد يململ شفتيه Désolé, on ne peux pas vous accordez un visa... ، هل يرضيك هذا يا سي أحمد، هل يرضيك أن تتحول قارة الحب إلى امرأة خطيرة...

أنا التي لم أدخل مخفرا للشرطة إلا من أجل تجديد بطاقة تعريفي الوطنية أتحول إلى قائدة منظمة إسلامية متطرفة، لقد ذهبوا أبعد من هذا، قالوا إنه سبق وأن نفذت عملية وسط باريس خلفت عددا لا يستهان به من الجرحى...

الأغبياء كان عليهم أن يعلموا أنني لم أطأ أبدا أرضا أجنبية، الأغبياء كان عليهم أن يعلموا أنني لم أفكر في استخلاص جواز السفر إلا مرتين، المرة الأولى عندما كنا نخطط أنا وأنت للسفر إلى بيروت واضطررنا للتخلي

عن الأمر بعدما أقرضت نقود السفر لصديق لك وهذه المرة فقط عندما استبد بي الورم الخبيث... أبدا لم أحس بكل ذلك القدر من المهانة، حتى لما داهمتني الحاجة في الفراش لأول مرة، تكفل الخوف بتخليصي من الشعور بالذل، أما الآن وقد قطع الجسد جل الطريق نحو نهايته أجد نفسي وجها لوجه أمام كمية الخزي الثقيلة التي عشتها ذلك اليوم، بدءا من تلك الوقفة جنب حائط السفارة منذ الخامسة صباحا وحتى منتصف اليوم، وجوهنا نحو شمس شتنبر الحارقة، لم يكن مسموحا أن تغادر مكانك، يفهم الكل هناك أنه عليك أن تدخل الحمام وتقلل من السوائل قبل أن تأخذ مكانك جنب الحائط، السماسرة هناك يتاجرون في كل شيء، جنب الحائط صراط حقيقي...

آه لن أنسى أبدا ذلك الصوت الأجش اللعين وهو يصرخ بدون داع Reculez, Reculez...، اليد المتدربة جيدا تجس كل مناطق الجسد قبل أن تسمح بالمرور، لا تتردد في أن تنتزع الخرقة الموضوعة فوق الركبة المتورمة...

بالداخل صمت هائل، كآبة المكان لا تعادلها إلا كآبة المستشفى الذي كنت أرقد فيه، الكاميرات المثبتة في

كل الأماكن تخجلك وتخيفك في آن واحد، الناس منتبهون جيدا لكل حركاتهم، لقد دخلوا منطقة المراقبة الشديدة... بعد وقت غير قليل سمعت اسمي من خلال المكبر، دفعت الكرسي المتحرك باتجاه الشباك، كانت هناك فتاة شقراء، كل شيء فيها منمق كأنها مصنوعة من البلاستيك، مددت لها كمية الأوراق، أعطت لنفسها وقتا كافيا لتصفحها قبل أن تسألني ببلاهة (6) pourquoi voulez-vous aller en France ، لم يكن لدي من خيار، كان علي أن أجيب على كل تلك الأسئلة الغبية، من خلال الزجاج كنت أتابع الوجه البلاستيكي بحثا عن رد فعل ما، عن شيء يمكن قراءته، تأويله، فهمت أن الوجه تدرب جيدا على إخفاء ردود فعله، ذكرني باليد المدربة التي تجس كل مناطق الجسد، بإمكانك المرور غدا، قال الوجه البلاستيكي المدرب... بالخارج فقط عاد فانتظم إيقاع التنفس بداخلي. **(تتنفس عميقا)**

كنت أريد أن أسألك يا سي أحمد، لماذا أصبح الناس على هذا القدر من الخوف؟ إنهم يخافون كل شيء، لقد استبدلوا الأبواب فصارت من حديد، لم يعد مهما أن تكون جميلة ترحب بالواقف عندها وتمنع عنه الشعور

(6) لماذا تريدين الذهاب إلى فرنسا؟

بالغربة، المهم هو أن تكون صلبة وقوية، لم يكتفوا بهذا لقد وضعوا عند كل باب رجل أمن خاص أقنعوه بأن الناس، كل الناس أعداء له، رغم كل هذا ظلوا خائفين، أصبح ممنوعا أن تحدق في عيون الآخرين، أصبح ممنوعا أن تقلص المسافة بينك وبين أي شخص في الشارع إلى أقل من متر واحد، أصبح ممنوعا
أن تحمل حقيبة، أصبح ممنوعا أن تضع حزاما حول خصرك، أصبح ممنوعا أن تنتعـل حذاء يمتد إلى ركبتيك، أصبح ممنوعا أن تحمل عطرك الخاص ومزيل العرق، أصبح ممنوعا أن تطوف أكثر من مرة بمكان أعجبك... لقد صيروها جحيما يا سي احمد.

أعرف أنني أثقلت عليك، أعرف أنك لا تستطيع أن تتحمل كل هذا الألم، أعرف أن هذا يقض مضجعك هناك، لكنك عودتني أن أقول لك الأشياء كما هي، كيف أحجب عنك أنهم قالوا لا on ne peux pas vous accordez un visa...، قالوها بكل وقاحة وصلف، لم يكلفوا أنفسهم عناء أن يشرحوا لماذا.

المغرورون يظنون أنهم سيمنحوننا تأشيرة إلى الجنة، إنها ورقة، مجرد ورقة، لم أستوعب بعد كيف يمكننا أن نبيع منزلا من أجل ورقة، قل لي هل يمكنك أن تستوعب

ذلك يا سي أحمد... ليس أذل من أن تحس صوتك مقموعا، مكسرا، مفتتا بداخلك، أريد أن أفتح فمي واسعا، واسعا لكن كيف؟ كيف لجثة تنتظر الدفن أن تفتح فمها؟ لست سوى جثة يا سي أحمد، حتى لو لم يعجبك أن أقول هذا، حتى لو لم يعجبك أن أصف نفسي بالجثة فلست إلا كذلك، آن لي أن أفتح عيني واسعة على ما يجري من حولي، لست إلا جثة استعصى دفنها، جثة حولت أياماً من حولها جحيما... إنني أبذل جهدي كي لا أشتكي، كي لا أرفع صوتي بالأنين، أن لا أكون متطلبة، أن أمنع رائحة جسدي من أن تفوح في المنزل، لكنني أحتاج إلى من يحملني إلى دورة المياه، يوسف يقوم بهذا، لم أستطع بعد أن أتعود على الأمر، إن رفضت ربما أضطر لقضاء حاجتي في الفراش، أتساءل كيف يمكن له أن يستقبل جسد زوجته بعدما رأى تفسخ جسد أمه...

سئمت الانتظار، أتعبني الجسد الخائن يا سي أحمد، قتلني غرورهم، ربما آن لي أن أستريح، أنت من قلت لي إننا لا نعيش في هذا العالم إلا حين نحبه، لم أعد أحب هذا العالم يا سي أحمد، لم أعد أحبه، لقد انقضى وقت الضيافة ولا بد للغريب أن يؤوب إلى موطنه.

(تدفع الكرسي المتحرك وتفتح أحد الأدراج، تأخذ فستانا أبيض نميز أنه نفس الفستان الذي ترتديه في الصورة)

(وهي تلبس الفستان)

الجو خانق هنا يا سي أحمد، أظن أن رائحة التراب أشهى وأرطب، قرب قبرك تسقط أوراق شجيرات بلون البرتقال المضيء... أنا قادمة، صرت جاهزة الآن... ربما لا يصح أن أغادر دون أن أترك شيئا لابننا يوسف.

(تفتح درجا آخر، تأخذ ورقة وقلما، تكتب)

العزيز يوسف:

بعد أقل من ساعة من الآن ستعود إلى المنزل، ستضع المفتاح في قفل الباب وستنادي باسمي، سيجيبك الصمت، بقلق ستدفع باب الغرفة، سترج جسدي مرة أولى وثانية، ستمد يدا مرتجفة لتمسح بعض اللعاب المتكوم حول فمي، ستفهم حينها أنني غادرت... قاوم حسرتك واحك لي قصة الفيلم الذي شاهدتماه الليلة، تعرف كم أهوى القصص، لا تنسَ أي شيء، اعتن جيدا بالتفاصيل الصغيرة، أعرف أن لك ذاكرة ضعيفة، يمكنك أن تستعين بليلى، فعيون النساء تسقط على أشياء يغفلها الرجال، لن تنكر أني ابتدعت لأجلك كثيرا من

القصص، إنه دورك الآن...

تعرف يا يوسف أن لكل منا حكاية نقتسم بعض تفاصيلها مع الآخرين ونحتفظ ببعض منها لأنفسنا وتلتبس علينا مناطق أخرى شاسعة من هذه الحكاية.

تذكر يا يوسف أن حكاية جميلة هي حكاية لا تنتهي إلا لتبدأ، لا تصدق أن حكايتي قد انتهت، لقد غادرت فقط لأنني بحاجة إلى هواء آخر، خرجت فقط لطلب هواء طري، هناك مكان صالح للإقامة يجرني كمغناطيس، الآن أحسني صبية وقفت بمتجر كتب في المدينة القديمة تبحث عن عنوان ما، لم تدر أبدا أنها ستعود بعد فترة وجيزة لتبحث عن شيء آخر... ثق بي يا يوسف، لا أستطيع أن أرجئ الأمر أكثر، فرح شامل يلفني، يدوخني، الحياة جميلة رغم كل شيء، لكن الطفل قد يكسر كوب الحليب طمعا في ثدي أمه.

انظر إلى الأمر من زاوية أخرى، لديك الآن زوجة تأخذ بالك منها، تنجب طفلا أو اثنين، هناك مبلغ مالي محترم سيمكنك من ترك ذلك العمل المرهق في مركز النداء لتبدأ حياة جديدة...

عذرا إن كنت قد أفسدت ليلتك مرة أخرى.

أمك

(تتحرك باتجاه درج موجود أسفل السرير، تأخذ عقارا يستعمل لقتل الفئران)

لابد من عدد لا بأس به من الحبات لقتل الفأرة الكبيرة...

(يرن الهاتف)

يمكنكم أن تجيبوا على الهاتف، فقط ابلغوا المتكلم أنني قد سافرت، إذا سألكم أين يمكن أن تقولوا له رحلت إلى مكان لا يحتاج تأشيرة...

(تبتلع كمية كبيرة من العقار، الهاتف لا يزال يرن)

ستـــــار

تغريبة ابن سيرين

مفلح العدوان ـ الأردن

يحتوي المسرح على مجموعة من الأَسرة المعدّة للنوم، وهي تعكس في هيئتها، وشكلها، المستوى الاجتماعي والحضاري لأصحاب هذه الأسرة، حيث هي أماكن للنوم، والحلم، من أزمنة مختلفة، قديما، وحديثا: سرير بطابقين.. فرشة على الأرض.. أريكة فخمة.. صخرة مستوية.. مسند سلطاني.. مهد أطفال.. مقعد رصيف.. كتلة قش.. مفرش صوفي.. كل واحد من تلك الأسرة له دلالة اجتماعية، وحضارية، وثقافية، من أزمنة وطبقات مجتمعية متباينة.

يقف وسط هذه الأسرة ابن سيرين، لابسا زيا نصفه كفّن أبيض، ونصفه الثاني رداء ملون، يعكس حالته بين الغياب والحضور، الموت والحياة، اليقظة والحلم، العري والستر.. هو ليس نائما ولا مستيقظا، حالة بين الاثنتين، تارة يحلم، وتارة ينقل حالة حلم عن آخرين، لكنه ضجر، قلق، مستاء، وكأنه يبحث عن شيء فقده.

يتقدم نحو مقدمة المسرح، ويواجه الجمهور، واضحة عليه ملامح الحيرة، وكأنه خارج من عالم آخر..

ابن سيرين : دفنت وكان عمري تسعون عاماً.. أتذكر آخر شهقات الغياب.. حقا مت.. كان هذا قبل ألف ومئات عدة

من السنين.. نعم مت.. أنا «محمد بن سيرين».. لكن ما الذي أعادني بعد كل هذه السنين؟

يضرب كفاً بأخرى

ابن سيرين : مضى عمري.. وانتهيت.. فأي قدر جعلني حاضرا في كل زمان؟!! آلاف الأعمار مضت.. كل يوم هناك رحيل، ووداع، لكنهم ليسوا مثلي، فما إن يغيبوا حتى يزداد ثقل التراب عليهم، ويكملون نومهم، ولا أحد يوقظهم بعد وداعهم الأخير..

يشير الى من حوله

ابن سيرين : ها هم على أسرتهم ساكنون، مرتاحون: بشر.. حيوانات.. أطفال.. نساء.. رجال.. كلهم لا أحد يوقظهم.. وقد مضوا..

يشير الى نفسه

ابن سيرين : لكني رغم غيابي، ما زلت هنا.. معهم في صحوهم، وفي نومهم.. في غيابهم، وفي حضورهم.. دائما أعيش معهم.. وأتلصص عليهم..

يصمت.. كأنه يريد أن يتراجع عن بعض أقواله.. ثم يتابع

ابن سيرين : لا.. حاشا لله أن أتلصص عليهم.. هم يقولون لي كل شيء بمحض إرادتهم.. كل ما عندهم يثرثرون به لي..

يتأمل أناسا متخيلين.. كأنه يستقبلهم في بيته..

ابن سيرين : يأتون نحوي.. ينظرون إليّ.. كانت نظرتهم توحي برجاء.. تُنبئ عن خوف.. تُعبّر عن تَوق.. تريد أُمنية، ولو كانت كاذبة.. ترغب في بارقة أمل، وإن عزّ تحققها..

يهدأ برهة، كأنه يفكر في أحوال من جاؤوه.. ويحاور نفسه..

ابن سيرين : لكن إلى متى يمتد هذا؟ كلهم نيام.. وإذا استيقظوا جاءوا اليّ.. وبدأوا سرد حلمهم على صحو.. يزيدون عليه.. يؤلّفون ما يتوقون له.. يثرثرون معي.. وأنا أسمعهم.. يبنون قصور أمنياتهم.. ويشيدون بيوت رغباتهم..

يتحرك نحو الأسرة حوله..

ابن سيرين : هنا يرقد حُلم عالِم، وهناك يغفو حُلم مومس، وفي تلك الزاوية حلم جنديَ.. وفي الجهة الأخرى حلم سلطان.. وفي كل الأمكنة هناك أحلام بعدد المقيمين في جُزُر النوم: حلم القديس.. وحلم الكافر.. وحلم اليائس.. وحلم البائس.. وحلم.. وحلم.. كلها أحلام تمر أمامي، كأنها استعراض عسكري.. كلها تريد أن تظهر بكل قيافتها، لأقول كلمتي فيها..

يخبط على جبهته..

ابن سيرين : لكن وبعد أن أمضيت العمر، كل عمري، وأنا اسمع، وأسمع، وأسمع.. اكتشفت أني نسيت حلمي، وأنا مشغول بأحلامهم.. تلاشت كل تفاصيله وأنا أرقب أضغاث نومهم، عند صحوهم.. تبا لعمري الذي أضعته عبثا، متعقبا فيه تفسير أحلامهم، مهملا حلمي الذي أهملته، فنسيته.. أنا أريد الآن أن اعرف حلمي، ارغب أن أكتشفه، أتوق لأن أحمله طفلا عزيزا علي، وأثرثر معه، مثل كل الخلق، وأبحث عن من يفسره لي.. أين حلمي؟ أين هو؟ لماذا أضعته؟

يبدأ بالتفتيش بين الأسرة.. يبحث تحت الأغطية.. يحدق في تفاصيل الأرض.. يتأمل فضاءات السماء.. وبعدئذ يجلس مستسلماً على حافة أقرب سرير منه.

ابن سيرين : نعم كنت أحلم.. كنت مثلهم.. مبتهجا أصحو، لأسرد ما رأيت.. لكن حين بدأت الحكاية.. كانت الصدفة هي التي جعلتني أنسى حلمي، وأنشغل بهم..

يستند على حافة السرير، ويتمدد عليه.. ينام.. ويتململ في السرير كأنه يحلم.. يعبر عن حلمه بحركات وتمتمات وهو نائم.. ثم يصحو..

ابن سيرين : (**وهو متمدد على السرير**): نمت.. وصحوت.. في تلك الأيام كنت أنام وأصحو مثل كل الناس.. وكنت أحلم أيضا.. أول مرة حلمت فيها صحوت فرحا.. (**يصمت**

كأنه يريد أن يتراجع عن تصريحه..يكمل).. لا..لا.. كنت حزينا.. **(يصمت، ويتردد، ثم يكمل)**.. لا.. لا.. كنت خائفا.. **(صمت)**.. كنت قلقا.. كنت مرتابا.. كنت مندهشا.. كنت ربما كل هذا..وربما لا شيء من هذا.. وكان الجميع نيام.. وعدت فرحا بالحلم، أحاول النوم مرة أخرى..

ينهض من السرير، ويجلس على حافته..

ابن سيرين : لماذا كانوا نياما عندما صحوت؟ لو كان واحد منهم مستيقظا، كنت سردت له حلمي.. كنت احتفظت بالحلم في خزانة ذاكرة هذا المستيقظ الذي استمع لي.. لكن لا أحد كان مستيقظا.. ولم أسرده لأحد، وعندما نمت وصحوت، مرة أخرى، لم أتذكر الحلم.. وأنا حتى الآن لا أتذكره: ربما كنت فيه فرحا..ربما حزينا.. ربما خائفا.. ربما غاضبا.. لا أعرف.. لكنني حلمت.. أقسم أنني حلمت.. كنت حالما آنذاك، ولم أكن مفسرا للأحلام.. أين حلمي؟ أين اختفى مني؟ سأحاول مرة أخرى**!!**

يعود للاستلقاء مرة أخرى.. فلا يستطيع النوم.. ينتقل الى سرير آخر.. وآخر.. وآخر.. الى أن ينام بعد محاولات.. ثم يصحو بسرعة.. ويتأمل الأسرة الملقاة حوله..

ابن سيرين : ما زالوا نائمين.. وأنا يراوغني الحلم تارة، ومرات أراوغه.. أقسم أنني حلمت.. لكنني لم أستطع فك رموزه.. لا أتذكره.. لكنني كنت أشعر بلذة ما.. احساس ما..

يتحرك بجدية بين الأَسِرّة..

ابن سيرين : عقدت العزم على أن أوقظهم.. قلت لهم: قوموا من سباتكم.. اخبروا عن أحلامكم.. وبدأوا يستيقظون، كأنهم في قيامة جديدة.. ولكن قبل أن أحدثهم عن الحلم الذي كنت أكاد أن أتذكره، بدأو يسألونني.. توجهوا الي بقصص نومهم.. كل واحد يسرد حلمه لي.. أشغلوني بأحلامهم حتى نسيت حلمي.. وعلي أن أعود الى البداية لكي أتذكر.. ربما أتذكر..

يقترب من مهد رضيع.. يهزه ياستمتاع.. يضع أذنه على خشب المهد.. يحركه، كأنه يريد منه أن يعطيه إشارة يتذكر بها حلمه.. يصدر المهد صوتا.. صريرا.. يترافق مع صوت طفل.. بكاء.. ضحك.. يختلط مع حركة وصرير المهد..

ابن سيرين : ذات يوم كنت هنا.. كنت أنا ذاك الطفل.. كانت الدنيا بيضاء أمام عيني.. صافية.. شفيفة.. رائقة.. ساكنة.. نقية.. لم يلوثها حبر الزمن.. كنت طفلا آنذاك.. وكانت لي أحلامي الخاصة.. وأضحك وحدي.. وأبكي بكل

إرادتي.. وأحلم.. أحلم.. ولكني لم أكن ألثغ بأحرف تعبر عَمّا أرى نائما.. لم أكن أستطيع الكلام.. المصيبة أن تحلم ولا تستطيع الكلام عن حلمك.. كانت أحلاما كثيرة، لكني كنت في البداية، ولم تتحقق أبجدية وجودي بعد.. الآن أريد أن اعرف حلم تلك اللحظات الأولى: ماذا كانت؟ هل كانت تحمل تفاصيل عالمنا الأرضي.. أم أنها تعبير عن عوالم سماوية يأتي منها الطفل، فيُلْجَم نُطقه، حتى لا يعبر عنها؟ هل كل الأطفال هم براءة أحلام السماء؟ هل كنت أحلم بدفء رحم أمي؟ أم أعيد تلك الهمسات التي كانت تحكيها لي دون وعي منها؟

يسير حتى بداية المسرح.. كأنه نسي شيء، تذكره في هذه اللحظة.. يصلح من وضع ملابسه.. يقف في مواجهة الجمهور..

ابن سيرين : نعم كنت طفلا.. ولدت، أنا ابن سيرين، عام 30 للهجرة.. وصنفت من التابعين.. كانت الرسالة توشك أن تتحقق.. ولم أكن أعي تلك الفترة.. كنت طفلا، ولكن أحلام كثيرة كانت تتحرك في الفضاء من حولي بدءا من انتشار الرسالة المحمدية، حتى تدوين القرآن، وحراك الأسئلة، والتضييق على الأجوبة.. كانت هناك أحلام تتحقق أيضا.. نعم كانت الأحلام تتحقق.. وربما

لهذا لا أتذكر حلمي الآن.. هل تحقق وأنا لا أدري؟ وهل للحلم قيمة إن تحقق، ونحن لم نحلم به بعد؟ لكن الأحلام في تلك الفترة من الزمن كانت تتحقق، كأنها المعجزات، وربما لهذا لا أتذكر أحلامي!! أو أن الأحلام التي نتذكرها هي تلك التي تبقى حسرتها في القلب لاستحالة بلوغها!! ربما..

يمشي بجدية نحو سريرين متجاورين، ويقلبهما بشكل يجعلهما على هيئة كهف، ويدخل بينهما، وينام هناك..يعلو شخيره.. ثم يصحو.. ويلتفت حوله.. يخرج..يجلس أمام السريرين..

ابن سيرين : كل هذا الزمن الذي مضى وأنا في كهف.. هل دفنوني هنا، لأتقمص أحلام أهل الكهف؟

يلتقط كتابا بجانبه مكتوب عليه «تفسير الأحلام لابن سيرين»

ابن سيرين : **(يقرأ بصوت مرتفع)**: «تفسير الأحلام لابن سيرين».. هذا انا..

يلتفت باتجاه الكهف..

ابن سيرين : **(يتساءل)**: كم لبثت نائما في سرير الكهف؟

ابن سيرين **(يضيف بعد لحظة صمت)**: ثلاثمائة وازددن تسعا؟ لا.. لا.. أكثر..

يتأمل ساعة معلقة في السقف.. مؤشر التاريخ يشير الى أعوام تجاوزت

الألف وأربعمائة للهجرة.. يبدأ حساب الزمن على أصابعه..

ابن سيرين : ياه.. أكثر.. أكثر.. أربعمائة.. خمسمائة.. ألف.. ألف وأربعمائة.. بل أكثر.. أكثر.. كل هذا عمر من النوم..

يبدأ الانتقال بين الأسرة.. وعند كل سرير يمزق ورقة من كتاب تفسير الاحلام، ويرميها على السرير..

ابن سيرين : عمر من النوم.. ليس عمري وحدي، بل أعمار من ماتوا بعدي أيضا.. كلها مضت في جمود السبات.. وانا ما زلت غائباً ابحث عن حلمي.. تائهاً في أسئلتي، بينما كل من حولي يحلمون.. يحلمون..

يتحرك بين الأسرة، وهو يوزع الأوراق التي يمزقها من كتاب تفسير الأحلام..

ابن سيرين : خُذ هذا تفسير حلمك

ينتقل الى سرير آخر

ابن سيرين : وهذا لحلمك

ينتقل مرة اخرى الى سرير مختلف

ابن سيرين : وهذا حلمك

يتحرك نحو كل الأَسِرّة، وهو يردد مع كل ورقة يلقيها على سرير: «هذا حلمك.. هذا تفسيره».

(بعد أن يمر على معظم الأسرة على خشبة المسرح، يقف عن سرير يشبه

التابوت، وله عجلات، بحيث يستطيع التحرك به.. يلقي فيه ورقة، وثم يضع الكتاب جانبا، وبعدئذ يتسلق ليدخل في التابوت.. ويتمدد فيه، في البداية، ثم بعد لحظات يقرفص في التابوت/ السرير..)

ابن سيرين : تُرى.. ماذا كان حلمي عندما مت؟ وهل مت حقا مثل بقية خلق الله؟

يعدل من وضع جلسته في التابوت.. يتناول من داخل التابوت مجدافين.. يبدأ بالتجديف كأنه يبحر في الماء..

ابن سيرين : كنت أبحر بقاربي كل تلك السنوات.. أعاين سيولة الزمن.. أتفحص الأمكنة كأني جزء منها.. أتأمل البشر قارئا خرائط وجوههم.. كنت أمرّ على كل هؤلاء: الجزر.. البحار.. الأنهار.. الشواطئ.. الناس.. الأموات.. الأحياء.. العبيد.. السلاطين.. الجنود.. العاهرات.. القديسين.. اللصوص.. كلهم كنت أمر عليهم.. وأعاين أحلامهم.. أنبشها، وأُفَصّلها.. أقرأها، وأُفسرها.. كانت حالة قلق دائم.. مقام متشابه عليّ؛ لا هو موت ولا هو حياة.. وكلما حاولت الغياب استحضروني.. لم ارتح ميتا.. ولا ارتحت حيا.. وحتى الآن لا أدري هل أنا ميت حي.. أم حي ميت.. كنت أبحث عن حلمي، غير أني ضعت في أحلام الآخرين.. كنت أحاول أن أتذكر.. فلم أستطع.. وَغِبت في حالة

الاستماع لأحلام الآخرين، علّ واحدا من أحلامهم يشبه حلمي، ويُذكّرني بالحلم الذي نسيته..

يُجدّف أكثر.. وكأنه يسير في بحر.. ويتحرك تابوته/ قاربه..ليمر على كل الأسرة حوله.. وكلما توقف عند واحد منها يحاول استعادة سيرة صاحب الحلم..

ابن سيرين : تنقلت بين أحلامهم، كأني ربان أعمارهم.. ولم أقف عند زمن واحد، بل أبحرت في كل الأزمنة.. تداعيت مع تلك الأحلام، رأيتها نقشا على جدار كهف، تلمستها، شغفت بها، وجاءت كأنها تشي بالنطفة الأولى للرؤية البكر، فتهت بين يقظتي الموهومة، ونومي الموارب، وموتي المشكوك به، لأعاين كل أحلام من سبقوني، ومن جاؤوا بعدي.. هل كنت حاضرا كل تلك الأزمنة؟ ربما صرت بها أنا عليه حلما يستنسخ كل حين، عن أحلام ماضية، توارثها الخلف عن السلف!! ها هي أرواحهم تتقمصني.. أحلامهم تتقافز نحوي، في لهاث عمره آلاف السنين لتتجلى أمامي.. وأنا قبطان قارب التفسير، في نهر أحلامهم المستعادة..

يقف عند سرير عليه شبك كأنه زنزانة..

ابن سيرين : هذا حلم توقفت عنده كثيرا: واحد قال «إني أراني أعصر خمر».. والثاني قال «كأن الطير تتلقف العنب من فوق

رأسي».. اثنان في ذات المكان سرير السجينين.. وكنت أستمع إلى الحلم.. استحضرته مذ كان يوسف سجينا قبل مئات السنين.. قلت واحد يصبح جليس الملك.. والآخر يموت غدا..

يقترب أكثر من السرير بطبقتين..

ابن سيرين : وجلست مع كلا السجينين على حدة.. واحد قلت له اسأل عن حلمي عند السلطان.. والآخر قلت له اسأل عني في العالم الآخر.. وغابا .. وغبت.. وكان السلطان مشغولا بحلم يهدد ملكه، سبع بقرات سمان، وبعدهن سبع بقرات عجاف.. وسبع سنابل ملأى، وسبع تذروهن الريح.. كيف لكل هذه الأحلام أن تتمثل أمامي، ولا أنسى حلمي؟!

يُجدّف بقاربه.. يبتعد نحو صخرة.. وينزل مقتربا منها، ثم يتمدد عليها..

ابن سيرين : هذا حلم آخر: رأيته وقد نام على مثل هذه الصخرة، هو الذي كان يحلم بالخلود.. مشى.. ارتحل مثلي.. خاض تغريبته عبر البحور والجبال والأنهار.. التقط جلجامش عشبة الخلود التي يحلم بها.. كان لا يريد لروحه أن تفارقه.. يريد عمرا أبديا.. واستلقى بعد طول تعب.. صار يحلم بها بعد تحقق الحلم..

يتمثل ابن سيرين حالة نوم جلجامش.. يستلقي على صخرة، وبجانبه عشبة الخلود.. تطول غفوته.. ثم يتكلم ابن سيرين بلسان جلجامش..

ابن سيرين : **(متقمصا شخص جلجامش)**: رحلتي لم تنته بعد.. ها قد تحقق الحلم.. الخلود بين يدي.. والأرض ستبقى مقامي الدائم.. أحلم قليلا قبل أن أتذوق العشبة، أتشرب لذة تحقق الحلم.. المتعة أن تتجرع النجاح نقطة نقطة، كأنه نبيذ سماوي.. وبعدها يكون التحقق..يكون الـ..

يتلمس موقع العشبة، فلا يجدها.. تمسك يده قسوة الصخر..

ابن سيرين : **(ما زالت تتقمصه شخصية جلجامش)**: رَقّ الجلمود وما تحقق الحلم.. الأقدار عدوة الأحلام.. كيف تَأَتّى للأفعى أن تحلم مثلي بالخلود، وأنا الذي أرهقت بحثا عن عشبة الحياة؟ ها هي الأفعى تلتهمها دون عناء، بينما أبقى أنا رهين ترقبي لتحقق الحلم.. ها قد ضاع الحلم.. ضاع الخلود..ضاعت الحياة..

يركب ابن سيرين قارب الأحلام، ويبتعد عن الصخرة..

ابن سيرين : ربما الأفعى كانت تحلم أيضا.. وكان سريرها رحم التراب..أي هذا العذاب!! أحلاماً تقاتل أحلام.. وعيني هي الوحيدة التي لا تنام.. أريد أن أنام.. بي توق

لأن أخلع عباءة المستمع للأحلام..

يتحرك بهيستيريا، وهو في قاربه، كأنه يريد أن يهرب، أو يُبعد أشباحا تتعقبه..

ابن سيرين : (**بصوت مرتفع، وبسرعة**): مفسر الأحلام أنا.. العارف بها.. المحلل رموزها.. كل هذا أنا.. وربما أكون عرافاً.. أو ضارب رمل.. أو قارئ فنجان.. محدقاً في الأشياء.. كل الأشياء.. التيجان.. الوجوه.. القلوب.. الأحذية.. العيون.. الأحزان..

يمرّ على تفاصيل موزعة على المسرح..يمسكها أثناء ثورة احتجاجه..

ابن سيرين : الكأس الفارغ يعني نهاية العمر

يمسك كتابا..

ابن سيرين : الكتاب المفتوح، فضاءات حكمة، وكوة نجاة.

يمسك مجموعة مفاتيح

ابن سيرين : المفاتيح زنازين مغلقة

يمسك حجرا كريما أزرق

ابن سيرين : العين الزرقاء، مرآة الحاسدين

يمسك زجاجة خمر

ابن سيرين : العناقيد خمر متاح، وعمر مباح

يمسك حبة تفاح

ابن سيرين : التفاح خطيئة ومزاح

يعيد سرد دلالة كثير من الأشياء، تظهر في الأحلام، وهو من يفسرها.. إلى أن يقف وسط المسرح منهكا، ثم يشير إلى كل ما حوله

ابن سيرين : أحلام الآخرين.. هي تارة توصلنا إلى أحلامنا، ومرات تبعدنا عنها، وأنا في متاهة التأويل حائر.. لكن ماذا لو جاءني الحلم، أو كان رؤيا، وكان لا بد لي من تفسير حلمي، هل سأمتلك الشجاعة لتأويله، ومواجهة قدري..

يصمت لحظات.. تتضح عليه الحيرة..

ابن سيرين : يا لثقل الأحلام.. يا لعظمة الرؤى.. لو بقي الزمن سائلا منسابا، وأنا أبحر فيه، نحو كل عصر، وعهد، نابشا الرؤى، معاينا الأحلام.. لو يبقى هذا.. حتما سأقف حائرا أمام «رؤيا الذبيح».. مأساة الرؤيا حين نفسرها، وتكون النتيجة خنجر على رقبة الإبن.. وهذا ما كان..

يتضح خيال ظل على جدار المسرح.. كهل يقترب من صبي وبيده خنجر.. يقترب منه، استعدادا لذبحه..

ابن سيرين : الحيرة إبراهيم في تلك اللحظة، وكان حلمه ابتلاء له،

وامتحاناً لصبره.. تصدق الأحلام مع الصِديقين..
وكان قد فسر الحلم كما رآه.. واليقين دلّه على أن يتحقق
الحلم دما واقعا ينز من وريد ابنه..

ينظر الكهل في خيال الظل الى السماء، ويعيد نظره مرة أخرى الى ابنه، والسكين في يده..

ابن سيرين : مسؤولية هو الحلم.. رسالة.. علامة.. بشارة.. من
فسّره نال شرف فك الحجب ومحاكاة النواميس.. ها أنا
أرى اللحظة الأخيرة قبل أن يصل النصل الى الرقبة..
جاء الصوت..

يلتفت ابن سيرين نحو الأعلى..

صـــوت : «أصدّقت الرؤيا يا ابراهيم..»..

ابن سيرين : رحمة الرب أوسع.. وأكثر تفسيرا للرؤى.. كان إبراهيم
ينتظر التفسير من العلي، وهذا ما كان.. وجاء من يفتدي
الابن بدم آخر، ليكون فداء أبديا، وأضحية حتى نهاية
الحياة..

يختفي خيال الظل.. ويبقى ابن سيرين مبحرا بين الأسرة/ القبور.. ثم يتجه الى بساط بسيط من صوف، ملقى في زاوية المسرح.. يترجل من قاربه، ويمشي اليه، وهو يضحك..

ابن سيرين : بين فترة وأخرى، أعود إلى زمني مفسرا لحالي الذي

كان.. أنا أيضا حلمت امرأة بي.. يا الله كم فرحت حين
جاءتني المرأة تسرد لي حلمها بي...

يتجه ابن سيرين الى البساط، ويجلس عليه، ويضع أمامه طبقا صغيرا فيه حبات تمر..

ابن سيرين : جاءت المرأة اليَّ، وكنت شيخاً في آخر العمر آنذاك... قالت أتلو عليك حلمي.. قلت ألا تنتظري حتى أكمل طعامي؟ قالت: الحلم لا ينتظر.. ورفعتُ يدي عن تمرة أمامي.. قالت نجم يضرب آخر، ويسقط بين يديك.. وكان تأويلي له هو موتي بعد سبع ليال.. ومضت المرأة إلى حال سبيلها، كأنها مرسلة من السماء.. وفسرت حلمها على نفسي.. وقضيت سبع ليال في انتظار غيابي.. ومت بعدها.. حقا متّ.. بعد موتي بدأت تغريبتي، حيث كان كل من يحلم يستحضرني رغم موتي، يستدعيني من قبري، يسألني، كأني الوحيد الذي عنده صندوق تفسير الرؤى، أنا الذي لم يأتني الحلم، نسيته، وغاب عني..بل حتى عندما جاء حلم رحيلي، الذي ينبئني بموتي، جاء نكاية بي حلما غائبا، هبط على امرأة مجهولة، بداية آخر أسبوع من نهاية عمري.. هذا كثير.. لا استطيع احتماله.. وكلما تذكرته تمنيت لو أعود مرة أخرى، وأمضي ما تبقى من عمري حالما.. صانعا لحلمي.. بانيا له بكل أمنياتي

التي أشتهيها.. لا عاجزا، صامتا، لا هم لي سوى قراءة أحلام غيري..

يشير الى مجموعة الأسرة حوله..

ابن سيرين : (**بغضب**): كنت أعيش واقعا كما هو حولي الآن، في تلك الأزمنة التي فيها عشت.. ولم تتغير بعد ذلك.. صارت حالة تتكرر، وكلما عدت الى زمن عبر تغريبتي الممتدة، في سبيل تفسير الأحلام، أجد الصورة تتكرر.. آلاف الأسرّة، وملايين النيام، كلهم مدفونون أحياء في مقابر الأحلام، في غيبة قهرية عن وهم واقعهم الذي يريدون خلاصا منه..

يصعد الى تابوته المتحرك.. يتحدث وهو يتحرك بين الأسرة الأخرى..

ابن سيرين : كأن غولا مرعبا يقلقهم آناء يقظتهم، فينامون ليهربوا منه، علّ واقعا آخر يطمئنهم خلال حلم يتمنون، فيكون سديما بهيجا جديدا غير قتامة الحال الذي هم عليه من غيب، وترقب مجهول، ولهاث وراء رزق معدوم.. لهاث، وراء لهاث، ولا جدوى، حتى يكون الوصول الى تخوم الحياة الأخيرة.. كل يوم يلجأون للنوم، يستغيثون بالأحلام علّها تحقق أمنياتهم، علها تغير واقعهم، لكنهم يستسلمون لأضغاثها، ولا تأتيهم ثمارها، فيتيهون في وهم الحلم، مثلما كان تيههم في وهم اليقظة...

يترك ابن سيرين قاربه/ تابوته.. يقف على المسرح، متقمصا شخصية المتعبين في الأرض، كأنه يحمل أثقالا، أو يصعد جبالا.. وتتغير وتيرة تحركه، بين مشي، وركض، وزحف،..

ابن سيرين : هي حالة من اللهاث.. في اليقظة، أو في الحلم.. لهاث.. ركض.. قلق.. لهاث..قفز.. حركة.. تسلق.. تعب.. دوران في كل اتجاه.. ونحو لا اتجاه.. دوران.. دوران.. حتى يكون التعب.. الضعف.. النهاية.. الخاتمة.. ينتهي اليوم.. يكون الزحف الى السرير.. كأنه المنقذ.. يبدأ لهاث في النوم مرة أخرى وراء الحلم.. ترقب آخر: هل يأتي الحلم؟ هل يكون محملا بما نشتهي؟ أم يصبح رعبا آخر مكملا للهاث اليقظة؟

يستلقي ابن سيرين على أحد الأسرة.. يغمض عينيه.. يتكلم وهو هادىء، مستلق، ومغمض عينيه..

ابن سيرين : مرة تأتي الأحلام من الأعلى.. تأتي من عالم آخر.. تستقبلها قلوبنا، تكون أرواحنا مضت بعيدا، ووصلت نحو أمكنة مجهولة، ثم تعود محملة بتلك الرسائل الأحلام..

يظهر نور شفيف، مريح، يغطي المسرح، وموسيقى هادئة منبئة بأجواء روحانية صافية..

ومرة أخرى.. تأتي الأحلام من داخل صناديق أجسادنا.. قلوبنا.. أرواحنا.. أنفسنا.. تأتي انعكاس لما كان عليه يومنا.. تجسيد لخريطة واقعنا..

يظهر على المسرح إبهار أنوار متداخلة، فيها القاتم، والصافي، والأسود والأبيض، وبقية الألوان، مع موسيقى تعكس حالة القلق داخل الأرواح، والأجساد، وفي تداعيات الفعل اليومي...

ينتفض ابن سيرين من سريره.. ينهض، متجها الى قاربه..

ابن سيرين : لن أستسلم.. لا بد من أن أصل حلمي، لا بد من أن أجده، أمتلكه، ثم أفسره، وأُكَفّر عن خطيئة انشغالي كل عمري في تفسير أحلام الآخرين، وأنا غافل عن حلمي.. أريد حلمي.. سأتابع تغريبتي.. أتابع البحث عنه.. لا بد أن أجده.. لا بد..

ينطلق ابن سيرين بقاربه، ويبتعد نحو عمق المسرح، الى أن يختفي...

تعتيم

أبو النـّـــو

فراس محمد الحركة ـ سوريا

المكان

غرفة صغيرة ـ وربما تكون هذه الغرفة تحت الأرض ـ طاولة مكتب عليها عدد لا بأس به من الأوراق والمصنفات، علاقة أقلام، كرسي، مقعد خشبي عريض نسبياً عليه حرام من الصوف، صندوق غريب الشكل قرب الطاولة، طاولة صغيرة، عليها طبق كبير يحمل أفضل أصناف الطعام والفواكه، زجاجة خمر، باب الغرفة ظاهر على الجمهور.. تستمد الغرفة ضوءها من زواياها.

يرافق العمل المسرحي، حتى الختام، صوت البحر الهادئ الجميل.

الزمان: عِنْد أَرْذَله..

الستارة

يدخل رجل في الأربعين من العمر، شعره ولحيته أبيضان تقريباً، لباسه ممزق ومتسخ، وكأن شخصاً دفعه بقوة إلى داخلها، يصرخ.. يقع أرضاً، يلتفت حوله، تصدح موسيقى صاخبة عشوائية متداخلة وقوية، ينهض مذعوراً، يركض.. يقع.. يزحف.. يحبو.. ينهض، يقفز

في مكانه كالمجنون، يقع أرضاً، تسقط نظارته، تطفأ الأضواء مع انتهاء الموسيقى العشوائية الصاخبة القوية.. يئن الرجل في مكانه، يلهث بصوت قوي مسموع، يدلف ضوء خافت من إحدى زوايا الغرفة.. يلتفت حوله بحذر، يرفع يده مظللاً عينيه ببطء، ويقول بسخرية:

ـ شكراً..

يهز رأسه غير راض.. يقرب يده من عينيه، يفقد نظارته:

ـ أين نظارتي؟

يحبو باتجاه ما باحثاً عن نظارته، يرتطم رأسه بالطاولة.. يعلو الطاولة، وهو يلتفت حوله بحذر..

ـ ما هذا المكان العجيب؟ كل يوم في مكان جديد، وحال جديدة، وطعام جديد..

و *«أنا وحدي أتصدى للريح الغربية*

وأنا.. بيديّ الشاحبتين أقاوم أخطائي الغيبية!

.... أسير على كفيْ.

أبكي وحدي في الظلمة أحباباً غابوا (فوق) الماءْ

أتلكأ عند حدود الشوق وأرثي تاريخ الأسماء!» *

تسقط بعض الأوراق والأقلام، بعد أن استقر الرجل على الطاولة

---

* علي الجندي.

تماماً.. ينبطح عليها، تسقط المصنفات وباقي الأغراض، وتتدلى يده، يتوسد الأخرى، ويئن بصوت مسموع.. تزداد إنارة الغرفة بعد برهة تدريجياً، وببطء ملحوظ.. تبدأ الموسيقى العشوائية الصاخبة، ويتزايدان معاً.. يرفع رأسه، يرتجف، يحاول أن يتكور، يقع أرضاً، يتكور قرب الكرسي.. تتوقف الموسيقى فجأة، ويبقى الضوء على حاله، يلتفت حوله، ينهض، يراقب..

ـ **صوت من خارج المسرح**: يا أبو النّو..

يصعق للصوت المفاجئ، يرتجف، يصغي بحذر..

ـ **يردد الصوت ثانية**: يا أبو النو..

ـ **وهو يحاول الاحتماء بالكرسي**: نعم..

ـ **الصوت**: يا أبو النو.. هذا المكان الذي أنت فيه الآن هو مكتبي الخاص، وهو آخر مكان تزوره عندنا قبل مثولك للمحاكمة، لديك كل شيء لتكون مرفهاً، معك الليل كله، وما عليك سوى أن ترفه نفسك، وتدون ما هو مطلوب منك، وإلا بشرفي ستعدم. مفهوم؟

ـ **أبو النو مقلداً**: مفهوم؟ اي تفو.. لن يكون لكم ذلك.

تطفأ الأنوار فجأة، وتعود إلى ما كانت عليه.. يرتبك قليلاً، يعود لهدوئه، يسير ببطء شديد باسطاً يديه، يصل إحدى جنبات الغرفة.

ـ الباب؟!

يحاول فتحه.. يفشل.. يحاول شده بقوة أكبر، فيقع أرضاً..

-

«كنت أحياناً الغوّاص الذي لم يعد يقدر

على تجنّب الماء الهائج!

وكثيراً ما كنت شعباً لا يقدر

على الفرار من المدينة!» **

هيه.. لقد أ نهكوا جسدي من شدة الضرب، المشكلة أنهم لم يوجهوا إليّ إلا سؤالاً واحداً، وباقي الأسئلة تصدر صوتاً من جسدي(**يكشر عن أسنانه**) ذلك الأصلع اللعين..(**مقلداً**) يا أبو النو.. سنجعلك تنونو.. (**بصوته**) وينهال عليّ ضرباً.. يا أخي إن كانت المشكلة كذلك سانوْي حتى الصباح، أي.. نياووو.. آخ.. نياوو..

صمت قليل.. برهة شرود..

ـ لو كان كل واحد منا يتنبأ بدخول مثل هذا المكان لكان تابع تمارينا للتقوية الجسدية..

يضحك بشكل هستيري.. ثم يقول مقهقهاً:

ـ يا أخي تعودنا.. والله تعودنا، اعتقالات.. سجون..

** موريس ميترلنك.

منافي.. تعذيب.. قهر.. فقر.. نضال.. آه.. لقد اعتقلت مرتين، مرة في الأرض المحتلة عند العدو الإسرائيلي، والثانية الآن هنا في هذه العاصمة، الأولى: لأني أرفض السلام، والثانية: لأني أجيّش أفكاري وأشعاري للمقاومة، وأزرع الثورة في نفوس الشعب المغلوب على أمره..

يجثو.. يشرد.. صوت عزف منفرد حزين على الكمان..

ـ ما هذه الوحدة والغربة التي أشعر بها، أشعر.. أشعر أني غريب في وطني، في أسرتي، ولا أعلم كيف يجدون وجودي هنا بينهم مألوفاً.. ياه.. آخر شيء أذكره قبل دخولي هذا المكان هو البحر، البحر **(يعتدل في جلسته)** ودعت أخي الذي هرب مع بعض الرفقاء إلى المنفى، وركبتُ سيارة أجرة عائداً إلى المدينة الساحلية الجميلة، وهناك تماماً، وعلى مشارف المدينة تلك، داهمتني دورية مسلحة، قبضوا عليّ، واقتادوني إلى هنا..

يرفع يديه مناجياً..

ـ يا رب السماوات.. احفظ أخي والرفقاء سالمين لمنفاهم الإرادي..

يجثو.. يحبو مفتشاً عن نظارته.. يتوقف..

ـ كيف يحصل هذا؟ ولماذا أنا؟ كيف يبيحون لأنفسهم أن يحرموني من حريتي؟ الوطن مُلكٌ عام، فكيف يحرقون إرادتنا؟ كيف يخلطون وحدة مصالحنا، ويبعثرونها من جديد؟ كيف؟ الوطن مُلكٌ عام، فكيف نكون أمة واحدة، وكل واحد منا يقضم أظافر قدميه خوفاً وجوعاً؟ الوطن مُلكٌ عام..

يهز رأسه، كمن ينفض عنه أكوام أفكار يابسة:

ـ نحن أمة لو بعثرها النّو، لكنا للنّو خالقين.. إي روح يا عمي، لا مكان في بلدي إلا...

تصدح الموسيقى العشوائية الصاخبة من جديد، قاطعة حديثة، يبقى جاثياً، شامخاً، ينهض ببطء.. يصم أذنيه، يتلوى، يتأرجح.. يصرخ بصوت قوي وعميق.. يجثو.. يستلقي.. يتلوى.. تتوقف الموسيقى فجأة.. أبو النّو ما يزال على حاله مستلقياً.. يحرك أطرافه بطرافة.. ينهض.. بتابع البحث منحنياً عن نظارته، يجدها، يبتسم، يمسحها بطرف قميصه الممزق.. يضعها على عينيه، يراقب المكان..

ـ الحمد لله.. هكذا أفضل.. نعم.. الآن أستطيع حضور مسرحية الحياة، تلك المليئة بالألوان والظواهر والقوى والفرضيات..

يفتح عينيه ويغمضهما أكثر من مرة، يقدم رأسه للأمام، يضع يده على

نظارته مكان العدسات المكسورة ـ أو المفقودة ـ ينـزعها، يضربها بالأرض، ويدوس عليها..

ـ العمى يضربهم، حتى نظارتي لم تسلم منهم، والله لم تبق غيرها (**مشيراً إلى مؤخرته**) وأخشى أن يستثمروها، أو يؤمموها، وتصبح أملاكاً عامة. هي.. مهما كنتم أقوياء، فمطلق الحقيقة في ذاتي تطحن كل شيء لأجل الخلاص الأبدي!!

يطرق في الأرض.. يلملم بعض الأوراق التي وقعت عن الطاولة، ويضعها على طاولة المكتب، وكلما أمسك شيئاً قربه من وجهه متأكداً.. يدور حول طاولة المكتب، يرى الصندوق، يتلمسه، يفتحه، يتناول بعض الصحف والمجلات، ويعود إلى الطاولة، يجلس على الكرسي خلف طاولة المكتب مقابلاً الجمهور، وهو منكب عليها ومقرباً وجهه منها ليحسن القراءة، يقلبها، يرميها، يتناول غيرها، يقّلبها، يقرب وجهه أكثر، يقرأ:

ـ إن ملحمة (جلجامش) ذروة الأعمال الأدبية الخالدة، بما تحتويه من قصٍّ ممتعٍ، وأسئلة فلسفية، تتعلق بالكينونة وبالوجود..

يرميها وهو يقول:

ـ صحيح.. ما يحزُّ في نفسي أنه تم ترجمة الملحمة عن

اللغات الأوربية، أيعقل أننا لا نستطيع، نحن أصحابها، ترجمتها؟!!

(يتناول واحدة أخرى.. يقلبها.. يقرب وجهه أكثر، يقرأ:)

ـ تم اعتقال الكاتب والشاعر الكبير أبو النّو..

يترك الجريدة.. يشرد.. يقول:

ـ هل كان على الرفقاء الهروب؟ لا.. لا.. لقد رأيت الكثير من الشباب يعذبون هنا، وقد خسروا بعض حواسهم أثناء التعذيب. كان يجب أن يبقوا هنا، فنحن لا نعير اهتماماً للاعتقال أو التعذيب، نحن أفراد هذا الشعب العظيم، يجب أن نتكلم، يجب أن نصرخ بأعلى صوتنا، نحن للوطن والوطن لنا، نحن أقوياء، خلقنا أقوياء، وسنسود العالم بأسره بالحضارة والفن والفلسفة..

يشرد قليلاً.. ثم محادثاً نفسه:

ـ إي شو هالفلسفة، نموت من الجوع من أجل حضرتك؟ ومن قال تموت من الجوع؟ يا أخي أن تكون مع الدولة شيء، وأن تعمل ضدها شيء آخر، يعني بلا مؤاخذه، اخرج من هذه الأبواب، وادخل عالم الصدق والنبوءة. أغرك المال والجاه؟ يا أخي المال مثل اللغة

تماماً، كلاهما وجدا كأسلوب للتعايش والبقاء..

يرمي الجريدة أمام المكتب.. يلتقط مجلة أخرى، يقّلبها.. يقربها من وجهه، يقّلبها.. يقربها.. يحدق بها جيداً.. تبدو عليه ملامح الجد، يقف، يقربها من وجهه، ومن الضوء أكثر، يقول:

ـ هذه صورتي.. قصيدة للشاعر أبو النّو قدمها يوم التمرد العظيم؟!

يحدق بها بشغف كبير، يصعـد الكرسي.. يهم بإلقاء الشعـر، تسمع أصوات مشجعة متداخلة تحثه على القراءة، تتداخل مع أصوات أخرى تصرخ معذبَة، يرتجف في مكانه قليلاً، ينـزل.. يجلس.. تغيب الأصوات بجلوسه:

ـ كنت سأقيم أمسية شعرية في مدينة صغيرة، ولم أبدأ قصيدتي هذه حتى أُطفأت الإضاءة بحجة أن شبكة الكهرباء في المجمع الثقافي تعطلت، وعمت الفوضى، وأرجأت الأمسية، وعلمت بعد يومين من أصدقائي المفكرين والمثقفين في المدينة أن أحد (المتواطنين) قام بنسف غرفة القواطع الكهربائية التابعة للمجمع الثقافي، بالتعاون طبعاً مع بعض السَلطات والفتوش المختصة، وقرر المثقفون وأهالي المدينة التمرد، فأمسكوني كالمخلّص، وتجمهروا حولي، وجمعوا الطاولات والكراسي والبراميل، وحتى حاويات القمامة، ليصنعوا

منبراً عالياً أقف عليه، ويرونني منه. أعجبت بهذا التمرد العظيم، وحمسني وقوفهم كالبنيان المرصوص والحمد لله.. لكنهم عيّشوا، وسقّطوا، وسقّطوا، وعيّشوا.. كان يوماً عظيماً، غير أني لم أقرأ قصيدتي، ولم أعتل المنبر المصنوع، لقد حوصر المكان، وأطلقتْ العبوات المسيلة للدموع، وبقيت مكاني أتفرج على الشتات الفظيع. اعتقلت يومها لساعات وأطلق سراحي. هيه.. لو كنت أعرف أن قصائدي ستنشر هكذا بعد اعتقالي لأمضيت عمري في المعتقلات، المهم أن يصل صوتي لكل الشعب. العمى.. عمر القصيدة أكثر من عشر سنوات، ونشرت الآن.. والله ممتاز، هذا يعني أنهم يريدون أن يوصلوا رسالة للجيل الجديد على أنهم متعاونون مع الشعراء والأدباء والمفكرين، ومن خلال نشر قصيدتي هذه يظهرون منفتحين، ومتحررين، ومتعاونين..

يعتلي الكرسي.. يرفع يده.. تصدح الموسيقى العشوائية الصاخبة المتداخلة القوية، مع تخبط الإنارة.. ينـزل عن الكرسي، يصم أذنيه، يحاول الصمود، يبعثر كل الجرائد والمجلات التي أمامه على الأرض، يتوسط الغرفة، يركع.. يحبو على ركبتيه.. يتكور في مكانه، وتتوقف الموسيقى العشوائية الصاخبة، وتثبت الإنارة.. يحبو بتكاسل نحو الطاولة، يلتقط المجلة التي وقعت منه أثناء صراعه مع الموسيقى،

يضمها إلى صدره، يتكور معها، يعتدل، ينهض، يرفع المجلة بإحدى يديه.. يحدق فيها، ويغني بصوت طفولي مقطعاً من قصيدته:

أنا شهيد شاهد على موتي

ومكتوب على جبيني

أمتي..

يتوسط الغرفة.. يلهث.. يجثو.. يضع المـجلة أمامه، مقابلاً للجمهور، ينحني عليها، يمسدها.. يقذف رجليه إلى الوراء ببطء.. يصبح منبطحاً..

ـ أتذكرين كيف كتبتك؟ **(يمسد المجلة)** أعدك بأن نسكن إحدى مدن البحر الجميلة.. ونبتعد عن هذا الهم.. أشهد برب السماوات أن طيفك المجنون لم يفارقني لحظة واحدة.. كفتاة طرية شهية كنتِ، وكنتُ عربيداً..

يضم المجلة، يستلقي، يغفو، تُسمع أصوات متداخلة، بين الموسيقى والشعر، أصوات نسائية، ضحكات الأطفال، موج البحر، ضربات.. صرخات.. لعنات.. هتافات.. عتابات.. نايات.. يصحو من غفلته، تغيب الأصوات كلها، يضرب الأرض بقدميه، يبعثره سعال حاد، يقوِّم ظهره، يحبو باتجاه الطعام، يسعل، يرتطم رأسه بطاولة المكتب، يغير اتجاهه، ونحو الطعام مباشرة.. يسعل، يصلْ، يتناول زجاجة

الخمر، ينـزع غطاءها بأسنانه، يجرع منها قليلاً، يتنحنح، يجرع مرة أخرى، ثم يغب متلذذاً.. يرتعش.. يتثاءب..

ـ كدت أموت لولا هذا الخمر.. الحمد لله..

يهز رأسه.. يقرب الزجاجة من وجهه، ومن الضوء..

ـ أجنبي!! جيد.. مع أننا أمهر من في العالم في صناعة الخمور (**يجرع**) عندما كنت صغيراً كان أبي يُجلسني على الطاولة أمامه، بين الأطباق والكؤوس، يسكب لي كأساً صغيراً. هيه.. قال لي سوف تكبر، وسوف ترى وتسمع ما لم أعلمك إياه، لذا سأحاول أن أعلمك كل شيء حسب استطاعتي، وتقرر أنت بعدئذ بنفسك أي مركب تحب الإبحار به.. رحمة الله عليك يا أبي.. أيه..

كان طويل القامة، قوي البنية، وكان يملك بندقية من الطراز القديم، ويشارك الثوار بأعمالهم الفدائية، وقبل استشهاده بساعات قال لي: توجد بيننا خيانات عظمى، ولكن الأهم دحر العدو، واستشهد كما تمنى. كان الثوار يغنون أغنية قومية حزينة عند دخول الضيعة، وهو محمول على أكتافهم، ومضرج بالدماء، استقبلتهم نساء الضيعة بالزغاريد والرز والياسمين والبكاء، واختلطت الزغاريد بالأغنية القومية، بأصوات إطلاق النار، بالبكاء.. كان طقساً مهيباً، طقساً للدم والدمار، طقساً

للدفن والدفلى. لم يكن أبي الوحيد، كل يوم عزيز شهيد، كل يوم صديق شهيد، وكل يوم رضيع يبقى وحيداً.

يحدق في زجاجة الخمر.. يرفعها للجمهور، ويقول:

ـ بالنصر..

يشرب النخب، يبكي، يشرب من جديد.. يهدأ.. يقع بصره على جريدة قريبة منه، يجرها نحوه، يقربها من وجهه:

ـ هذا المقال لي؟!! يا إلهي، هذه الجرائد والمجلات هي أرشيفي الشخصي! يا أوغاد، يا سفلة..

يقرب الجريدة من وجهه، يقرأ:

خالجتني نسمات باردة خلسة، وارتعشتُ، كأني وقعتُ في بركة ماء مثلج، ولا أملك من الدفء سوى أغطيتي، وراقت لي فكرة استراحة المحارب على مبدأ طاب النوم يا عرب! وما أصعب النوم في قمة لحظات التفكير واجترار الذاكرة.

ثم يُنـزل الجريدة ببطء، ويسرد:

ـ ياه.. تذكرتها، هيه.. يومها، نِمْتُ على بطني، منبطحاً، فشعرت بأشياء كثيرة مفعمة بالخذلان وخيبة الأمل، واستمرت.. لتتخمر عفونة الكشف، وتسفر عن أمرين: الأول: أشاع فيّ نوعاً من الإثارة والفحولة، كأني على

جسد امرأة تعصرني لتطبق على صدري.. والآخر: خازوق يثبتني على سريري، ويخرق صدري.

فغيرت، ونِمْتُ على جنبي الأيسر، لففت جسدي جيداً، وربّما حسناً فعلت، لقد ارتاح صدري، وجلت عني خواطر الدقائق الماضية، وصرت أسمع دقات قلبي تزداد تارة، وتغيب تارة أخرى، آلمني قلبي، وراح يكبر، ويتضخم، ويغفو.. مالي ومال قلبي، أين إرادتي؟

وبدأ يستولي عليّ خدر النوم، ويبلع السكون قلبي، فخفت عليه وعلى نفسي، فلحظات التشاؤم الممزوجة بشعور الموت مرهقة، فهربت!

نِمْتُ على جنبي الأيمن، يا أخي ينصح الأطباء، دائماً، بالنوم على الجنب الأيمن، وإن كنت أخشى من تخدر يدي اليمنى التي أستعملها للكتابة، ولأشياء أخرى، لكني واظبت على النصيحة.. تراءى لي قلمي مذعوراً، ومنشغلاً باندفاع أهوج نحو الغموض، وأصابعي مخدرة بلا جدوى، وسطوري تهرب من خطي العليل، شكوت لكلماتي همّي، بيد أن صوتها كان أشبه بالأنين، فخفت على كلماتي من تشوه أحرفي، لتنحو بغير قصد لغير معنى.

نِمْتُ على ظهري مستلقياً، لملمت نفسي داخل حرامي،

أحكمته جيداً حولي، ثم خرقت سقف غرفتي بأفكاري لأرى النجوم، تلك النجوم الجميلة التي أشبهها بنمش على صدر فتاة جميلة، تتغزَّل فيما بينها لتملك، حين الواقعة، الشامة الأخرى..

فتعب ظهري، واستمر ليطال رقبتي، تلك التي تسايرني عندما يكون وجهي مائلاً لليسار، وتريحني عندما يكون مائلاً لليمين، وعدا هذا وذاك، لحق بي شخير ناعم، يشبه صوت محرك الماء من بعيد ـ الذي يعمل على المازوت ـ وشعرت أني أتضاءل، وربّما سأختفي.

تخيلوا.. **(للجمهور)** لو نستطيع النوم في قمرة تدريب رواد الفضاء على انعدام الوزن، هكذا لا نحتاج لأي شيء، يا أخي، نم بطريقتك.. لا يهم، على مبدأ المثل الشعبي (نم على الجنب اللي يريحك) إي وبدون استقرار؟! ولكن.. إن كنتم تتوهمون بحالات أخرى تذهب بكل شيء، لإعادة صياغة كل شيء من جديد، فأنبئكم: اسألوا أولادكم إن كانوا راغبين بإعادة بناء خرابكم؟!

ويضحك.. يحبو لجمع الجرائد والمجلات الملقاة على الأرض، يسعل.. يشرب، يحدق في الزجاجة:

ـ يا أخي خمرنا أفضل من هذا بكثير..

يلتفت حوله.. ينهض.. يضع بعض الجرائد والمجلات التي التقطها على طاولة المكتب، يصغي، ثم يصرخ:

ـ هيّ.. يا.. ما هذا الترفيه العظيم، ألا تسمعونني؟ أنا أبو النّو.. أبو النّو.. يا أخي مللت، أين موسيقاكم أيها الأوغاد؟ لقد أعجبتني، هيّ.. هوّ.. يا..

يجلس.. يحدق في زجاجة الخمر.. يشرب.. يحبو باتجاه المجلة، يتناولها، يقلبها، ويعود بها إلى مكانه قرب زجاجة الخمر، يشرب..

ـ كم شربت خمراً لأدفئ نفسي، وأنا أروح وأجييء من أمام بيتك المميز بالشرفة التي يعربش عليها الياسمين.. ياه.. أين أنت الآن يا حبيبتي؟!!

يشرب بنهم..

ـ كنا في الاحتفال الأخير لرأس السنة نرقص كالمجانين..

يعاوده السعال، يجرع كثيراً، يأخذ المجلة، ينهض، يقوم بالرقص مع المجلة، يترنح دون هدى، يترنم بلحن راقص مغموم.. يتوقف عن الرقص.. يعود ببطء وحزن إلى زجاجة الخمر، يجلس قربها، يرفع زجاجة الخمر..

ـ أشعر أني بحاجة لعشرين أو ثلاثين منها. هق.. يا أخي لم أذق مثل هذا الخمر في حياتي، يعني لذيذ ومشؤوم، أو على الأقل هكذا أشعر.. شيء أفضل من لا شيء.

ياه.. ما هذا الشتات العظيم الذي نعيش فيه؟! أيُّ قدر ساقنا كالكبش لمذبح المهزلة؟! أذكر.. أذكر أول لفافة تبغ دخنتها، يومها أشعلت لفافتي التي سرقتها من أبي من جمر احتراق منـزلنا إثر القصف المركز الذي كان على ضيعتنا الصغيرة، وهكذا نحن، مسروقون، ومحروقون. هق.. يا إلهي.. كيف يختلط دخان القذائف والصواريخ بدخان سجائرنا؟! ونحن متلذذون.

يصيح:

ـ(احرق بيتك، أنا آتٍ.. دع كل شيء، واتبعني، أنا المتشرد العظيم..)

يهدأ، ثم يقول بصوته المحزون:

ـ ماذا فعلنا بأنفسنا؟ هق.. تركنا بيوتنا، مزارعنا، أراضينا، ونزحنا دون الدفاع عن أرضنا، والجيش العظيم الذي يتصدى للعدو فيه رجال جاؤوا من أقصى البلاد للدفاع عنا. هق.. وعن أرضنا وبيوتنا وأعراضنا التي تركناها. يا إلهي.. يا ربي.. يا بطني.. آه.. آه.. آه آه.. بطني.. معدتي..

يتلوى.. يعتصر.. يمد يده على الطعام، يعلّقها قليلاً في الهواء، يضرب الطبق، يبعثر الطعام والفواكه أرضاً.

ـ لن آكل طعامكم يا أوغاد. هق.. أوغاد.. أوغاد.. لقد رهنت حياتي كلها للشعر، لن أدعكم تمرغون حروفي في الليل..

يتلوى.. يعتصر.. يجرع قليلاً من الخمر، ينهض، يحمل المجلة بيد، والزجاجة بيد أخرى.. يردد لحن الأغنية القومية الحزينة، التي تصدح بتصاعد جميل، يتراقص معها، يتلوى، متأرجحاً من الخمر والألم، تندمج مع الموسيقى العشوائية الصاخبة. تتخبط الإنارة، وهو يرقص، ويرقص، ويرقص. يجثو.. يستكين، يجرع من زجاجته، يتلذذ الموسيقى بحركات مجنونة، يعتدل في جلسته.. يتمتم بصوت مسموع متقطع:

ـ الناس.. لا.. عود الثقاب. لا.. الجوع.. نعم.. رغيف الخبز.. أقداح مثقوبة (تهدأ حركته) خبر وفاة العمود الحجري الذي خرج للشارع مبللاً (يبتسم) لم يجد مكاناً ليتبول..

يثبت نظرة كمن تذكر شيئاً، ثم نسمعه يرتل الشعر بهدوء:

«لا أريد نواحاً.
لا حداداً، ولا دمعاً..

....

فقط.. شلالُ نبيذٍ أحمر يدورُ من فم إلى فمْ
فقط.. الموسيقى: تهبُّ على السماواتِ

كنسمةٍ مبللةٍ بعطرٍ أزرق» ***

يكرر كلمة (أزرق) عدة مرات، ثم يضحك بشكل هستيري.. يسعل.. يرتعش.. يرتجف.. يحبو باتجاه المقعد الخشبي، يسحب غطاءً له، يرميه على كتفيه، ويعود زاحفاً إلى مكانه، يسعل، يأخذ زجاجته، يشرب ببطء.. تصدح الموسيقى العشوائية الصاخبة.. ينهض، يقع غطاؤه، يترنح، يضرب صدره.. يجوب الغرفة مع اللحن الهمجي.. يحوم حول نفسه.. كطقس للعبادة.. يجثو.. يتكور.. يحاول النهوض.. يفشل.. يشرب.. يرتجف.. يتناول غطاءه.. يدثر نفسه.. تنتهي الموسيقى العشوائية الصاخبة، يظهر صوته متقطعاً مرتعشاً:

ـ دثريني واردمي.. هق.. تراب العالمين على جسدي..

يلتفت حوله، يشعر بوحدته:

ـ ألا تريدون إعدامي ياجنرالات. ها أنا ماثل أمامكم. هق.. أعدموني، اقتلوني، أنا أكره وجودي عندكم، أرجوكم أعدموني.

يبكي، يتلوى، يسعل، يأخذ جرعة من زجاجة الخمر، يتململ في غطائه..يردد لحن الأغنية القومية الحزينة، بصوت مغموم غير مفهوم، ينفض غطاءه، ينهض مرتجفاً من البرد، والخمر، والألم، ودون هدى يقلب طاولة المكتب، تتخبط الإنارة، وتصدح الموسيقى العشوائية

*** نزيه أبو عفش.

الصاخبة، مرافقة الضوء في القوة والانخفاض، ومازال يظهر صوت أبو النّو في الأغنية القومية الحزينة، ويكاد يغيب. يقْلب أثاث الغرفة، المقعد الخشبي، الصندوق، يمسك بعض الجرائد والمجلات ويقذفها فوق رأسه عالياً، تتطاير هنا وهناك، يصعد الكرسي، ينـزل، يعلو الطاولة المقلوبة، يقع.. الموسيقى العشوائية الصاخبة تعود مع الإنارة كما كانت عليه، وهو يحبو على الأرض مردداً ببطء:

- دثريني واردمي تراب العالمين على جسدي (**ثم يصرخ**) حبيبتي.. (**بصوته**) ربما أنا هنا، وغداً بين يديك، صدقيني.. هق.. لسنا وحدنا، هناك الكثيرون ممن رحلوا، أو ماتوا فداءً للوطن. لا تحزني، هذه الأرض تتلذذ قرابين دم الشهداء، نحن خلقنا لنحيا. هق.. وهذا يعني أن الرفقاء سيكملون الدرب، وسيحصدون نصراً عظيماً.

يبكي بصوت مرتفع قليلاً.. يتمتم شعراً بصوت مسموع:

«لا تقدر الشمس نفسها

أن تضيء هذا الجسد

الذي ينـزف ظلاماً

...

أين الحفرة التي تتسع للدمع؟
أين الثقب الذي يقدر
أن يؤاوي الروح؟» ****

يتكور.. يحاول النهوض.. يفشل.. يحبو نحو كل الجهات في الغرفة، متمايلاً، متكوراً، متألماً.. يعلو صوته ممطوطاً حزيناً في لحن الأغنية القومية الحزينة، يزداد صوت البحر قوة، وصوت النايات الحزينة.

يضرب صدره، يمزق كامل قميصه، يصبح عاري الصدر تماماً، ينهض يتكاسل.. يرتعش.. يرتجف.. يدور حول نفسه ضائعاً في كل شيء.. يقع أرضاً.. يعض يديه، ثم يتحول ليعض قدميه. يصرخ.. يزحف باتجاه الجمهور بشكل جانبي، تتعالى الموسيقى العشوائية غير الصاخبة، متداخلة مع صوت البحر، وصوت النايات، وضحكات الأطفال، وزمجرة الجماهير. يتابع تقدمه.. يظهر نصف جسده العاري خارج الغرفة ـ أي المسرحـ يرفع يده عالياً ببطء شديد.. يعلقها حرة قليلاً.. تهوي يده ببطء نحو الأسفل، فالأسفل، ويتبعها نصف جسده العاري، ورجلاه على المسرح، وتتسابق الموسيقى والأصوات والإنارة في الانخفاض حتى الصمت العام، ومنشور ضوئي صغير يغمـــــره كئيباً.

النهـــــــاية

**** أدونيس.